الطبعة
2

مريم عبد الجابر

رغبة في النسيان

مجموعة قصصية

دَارْ دَوِّنْ

رغبة في النسيان

الطبعة الأولى: يونيو ٢٠١٣
الطبعة الثانية : فبراير ٢٠١٤
رقم الإيداع: ٩٩٨٠/ ٢٠١٣
الترقيم الدولي: ٣-١٥-٦٤٢٦-٩٧٧-٩٧٨
تصحيح لغوي: محمود الغنام
تصميم الغلاف: أحمد مراد

تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

رغبة في النسيان

مريم عبد الجابر

مجموعة قصصية



مشيرة الطوخي

جلست على مقعد الحمام.. ثم قامت لتجد أن لون بولها يختلط بالدم.. إنها المرة الثامنة في شهرين. لم يبدُ على وجهها أي ردّ فعل. بلا مبالاة، شدَّت "السيفون". استندت على الحائط وهي تدخل "البانيو" بمنتهى الحذر؛ خوفاً من أن تفقد توازنها وتقع مرة أخرى.

جلست تنظر إلى الشباك المقابل لسريرها كثيراً حتى عرفت بتحديدها لقوة ضوء الشمس أن الساعة حوالي العاشرة صباحاً.. يومياً تُذكِّر نفسها أنها يجب أن تضع ساعة في غرفة النوم.. ثم تنسى.

قامت لتجلس بصعوبة تتناسب مع كبر سنها. صوت أنفاسها المسموع لا ينافسه سوى صوت مروحة السقف المعدنية التي تُصدر صوتاً متكرراً. تكره مُكيف الهواء وتخاف أن ينفجر فجأة في البيت وهي نائمة، وقد حاول أبناؤها أن يُقنعوها باستحالة ذلك، واشتراه لها أحدهم ليريح ضميره من عذابها في صيف مصر الذي تشتدُّ حرارته سنة بعد أخرى، ولكنها لا تقوم بتشغيله أبداً.

النصف العلوي من جسدها ممتلئ أكثر من النصف السفلي، فتبدو كلها ممتلئة؛ لأن قامتها قصيرة، شعرها لو تركته للطبيعة دون أي تدخُّل تجميلي فسيكون كله أبيض ولكنها تصبغه باللون الأحمر الغامق وتقصه "آلا جارسون" منذ وصلت للخمسين.

لم تغادر الفراش حتى سرحت في الأرض لثوانٍ في محاولاتها المعتادة للاستيقاظ والإدراك، ثم مالت وأخرجت من حقيبة يدها التي كانت بجانب سريرها على الأرض. مرآة صغيرة وحقيبة "ماكياچ" أصغر، وأخرجت من الدولاب ملابس ومنشفة كبيرة، واتجهت بهم إلى الحمام دون الملابس، فقد تركتها على السرير مرتَّبة بعناية.

ظلَّت تضبط بتركيز درجة حرارة مياه الاستحمام حتى اطمأنَّت تماماً أنها دافئة. لا باردة ولا ساخنة. تركتها تسيل. جلست على مقعد الحمام.. ثم قامت لتجد أن لون بولها يختلط بالدم.. إنها المرة الثامنة في شهرين. لم يبدُ على وجهها أي ردِّ فعل. بلا مبالاة، شدَّت "السيفون". استندت على الحائط، وهي تدخل "البانيو" بمنتهى الحذر خوفاً من أن تفقد توازنها وتقع مرة أخرى.

انتهت من الاستحمام وغسلت أسنانها، ثم فتحت الحقيبة الصغيرة وأخرجت طقم الأسنان.

- الناس لا تحب العيان ولا التعبان ولا الزعلان.. لا أفتح بؤي ولا تفتحي بؤك.. كُلي وانتي ساكتة.. أحسن والله ما أفتح لك الباب ده تاني.. انتي يوسف أخوكي بييجي نسمة ويمشي نسمة.. مش زيّك!

ضحكت حفيدتها ثم قالت:

- افتحي بس هنعد لتلاتة واقفلي..

فتحت فمها ثم أغلقته على أصبعها فجأة:

- يا نانّاه يلا..

ظلّت تنظر بتركيز وتحرّك رأس جدتها وهي تمسك بذقنها حتى تتمكّن من الرؤية جيداً:

- محتاجة طقم سنان طبعاً يعني طبعاً!

- طقم سنان إيه؟ أنا أموت ولا أعملش طقم سنان!

سكتت حفيدتها وهو تعود لمكانها لتكمل أكلها:

- هتعملي عليّ بقى دكتورة وانتي أساساً لسّه ما كمّلتيش سنتين في الكلية..

حاولت أن تشرح لها شيئاً فقاطعتها:

- تصدقي إنك طول عمرك فيكي حتة قلة ذوق كده واخدها من أمك..

- خلاص.. أنا آسفة.. أقعدي بقى اشربي بس.. بلاش أكل خالص.. أو امضغي باللثة..

جلست تدعك في يديها، وتفكّر ثم قالت لها:

- وفيه وجع بقى موضوع الطقم ده؟

- خالص..

- أما أفكّر فيها الأول وأشوف بقى.

ذهبت إلى غرفتها وهي ملفوفة بالمنشفة. ثم وضعت الكريم على أغلب مناطق جسدها. ثم التقطت ملابسها من على السرير. ارتدت بلوزة حريرية لونها بني منقوشة بزهور ملونة، وبنطلون بني، وحذاء بني بلا كعب.

خطوات بطيئة، اتَّجهت إلى المطبخ، فتحت ضلفة وسحبت منها علبة بسكويت ثم جهّزت لنفسها كوب شاي بلبن ووضعتهما على صينية بيد بها رعشة بسيطة جداً. اتجهت إلى الشرفة، أو كما تسميها هي "الڤارندا"، في الطريق قامت بتشغيل جرامافون قديم كان إحدى هدايا زوجها، فانطلق صوت المغنية الفرنسية القديمة "باربرا" تشدو بحزن يصل حتى إلى من لا يفهم اللغة الفرنسية التي تغني بها:

Voilà combien de jours, voilà combien de nuits

Voilà combien de temps que tu es reparti

Tu m'as dit cette fois, c'est le dernier voyage

Pour nos cœurs déchirés, c'est le dernier naufrage

أول ما اجتمعا عليه هي وزوجها في أول حوار طويل دار بينهما في أحد مقاهي الحي اللاتيني بباريس هو أن من الظلم أن تكون "باربرا" أقلَّ شهرة من "إيديث بياف"، ولكنهما اتفقا على أن حياة "بياف" مليئة بالأحداث الكئيبة والغريبة، مما جعل حياتها -كما يجعل حياة أيِّ فنان- أكثر إثارة للاهتمام والجدل. كما اتفقا على أن "كوكو شانال" كمصممة أزياء لها ذوق فني رفيع خاص جداً، وليس لديها هذا الفكر المجنون الشاذ في تصميم الأزياء.

في ليلة عيد ميلادها، عادت إلى بيت الطلاب، وهي حزينة لأنه أول عيد ميلاد تقضيه بعيداً عن أهلها وأصدقائها، فوجدت علبة صغيرة محفور عليها علامة "شانيل" وجانبها كارت:

"كنت أود أن أشتري لك فستاناً، ولكني لم أمتلك سوى ما يكفي ثمن قرط. صحيح هي ليست مجنونة في حسّها الفني.. ولكنها بالطبع مجنونة في تحديد

الأسعار. أنا آسف لأنها هدية لا تتناسب مع قيمتك عندي، ولا يوجد شيء على وجه الأرض يتناسب مع قيمتك عندي. أحبك وأنتِ التي أعطيتِ لباريس شكلاً أحلى في عيوني".

لم تكن تعرف أنه يستطيع أن يكتب باللغة العربية إلا حينها، وقال لها فيما بعد إنه تعمَّد ذلك: لأن اللغة العربية الفصحى هي أفضل لغة للحب وللخطابات.

دخلت الشرفة، وأخرجت من حقيبتها الصغيرة علبة سجائر وولاعة وقلم كحل، أمسكت المرآة ووضعت الكحل بسرعة التعوُّد. أكلت البسكويت ببطء ثم أشعلت سيجارة لتشرب معها الشاي باللبن.

تكره أن تخرج من بيتها إلا للنادي، ولكنها لم تعد تفضِّله بسبب تطفُّل الناس المزعج على شكل حياتها الجديد، وكيف تقتل الوقت في وحدتها، ولماذا لا تذهب لتعيش مع أحد أبنائها، كما أنهم لا يكفُّون عن تذكرهم لـ"سيادة المستشار" ومدى عظمة "سيادة المستشار".. فيؤلمها كل قصة أو ذكرى تسمعها وترسم ابتسامة لتحبس بها الدموع. أحياناً تقرِّر التمشية وحدها في الشوارع المجاورة بملابسها الرياضية الكاملة.

لديها أربعة أبناء لا تحبُّ أن تزورهم ولا تحب حتى أن تقضي ليلة عند أي منهم. هي لديها بيتها الخاص، من يرد أن يراها فليتفضل. تخرق تلك القاعدة في شهر رمضان فقط، تقضي أسبوعاً عند كل منهم، وليلة العيد تعود لمنزلها لتجهِّز مراسم عزومتهم عندها، تلك العادة التي انقطعت تدريجياً حين كبر الأحفاد، وأصبح لكل منهم ارتباطات ومواعيد خاصة وخطط سفر وأولويات أهم من التجمُّع الأسري. كل من يريد أن يزورها، يزورها فردياً في ميعاد يناسبه، وهي ترحِّب بالكل في أي وقت.

قررت أن تقوم لتسقي الياسمين والنعناع اللذين زرعتهما بنفسها ليحيطا ويزينا الدرابزين، آلمتها قدمها وهي تحاول أن تقف كالعادة، فمنذ أن أصيبت بكسر منذ سنين وهي لم تعد سليمة تماماً كما كانت، فكلما زاد العمر، زاد بطء التئام العظام والعضلات.

- "آآااااه.."

فتح يوسف باب الحمام، فوجدها ملقاة على أرضية الحمام عارية تماماً.

- إيه؟ إيه؟ حصل إيه؟

- رجلي أتلوت تحتي وأنا داخلة البانيو.. وبتوجعني جداً!

حاول تحريكها قليلاً فصرخت بشدة.. فقال:

- ده كسر!

لفَّ حول نفسه في مكانه يبحث عن ملابسها، لم يجدها، فذهب إلى غرفتها بسرعة ووجد الملابس جاهزة على السرير. عاد للحمام وألبسها وهي تبكي، وقد كان يوسف أذكى من أن يسألها لماذا تبكي أو يطلب منها أن تتوقَّف عن البكاء. هو يفهم كم يتضخَّم حالياً داخلها الشعور بالوحدة والضعف والألم النفسي والجسدي.

عندما يتمكَّن منا الإحساس الدائم بافتقاد شخص، أي ألم يذكِّرنا بشدة الاحتياج إليه، ويُشعرنا كم نشتاق إليه وكم نريده معنا.

منذ أن توفِّي زوجها وهي لم تعد لطبيعتها المعروفة. تحاول أن تتمسَّك بعاداتها وبنشاطها وبطاقة المرح التي كانت تنشرها حولها، ولكن رحيله ترك بها ذلك الثقب الروحي الذي لا يمكن أن يداويه أي شخص أو أي شيء. لقد عاشا سوياً أكثر من ثلاثين عاماً لم يقل فيها أي جملة إلا وكان أولها أو

آخرها "حبيبتي". والعكس.. حتى لو في الكلام العادي اليومي. لم يتشاجرا يوماً سواء حين جمعتهما علاقة عاطفية قضياها في باريس كطلاب للحقوق بجامعة "السيربون". أو بعد أن تزوجا وارتبطا رسمياً. وعاشا في القاهرة.. شجارهما كان عبارة عن عتاب على تصرُّف من طرف. فيبرر الطرف الآخر تصرُّفه أو يعتذر.. لم يأخذ أبداً شكلاً أكبر من ذلك.

قررت بعد وفاته بحوالي عامين أن تتوقَّف عن العمل تماماً؛ استقالت من عضويتها بمجلس الشعب. وأغلقت تدريجياً مكتب المحاماة الذي كان يعدُّ من أكبر مكاتب المحاماة في مصر. لم يصدق زملاؤها ما فعلته "مشيرة الطوخي".

لقد فقدت حماسها للإنجاز المهني. وفقدت قدرتها على المتابعة والحزم والقوة والنشاط والتركيز. فأمام مَن ستتباهى بنجاحها؟ فقدت شهيتها حتى للطعام والطبخ.. فلمن ستطبخ؟ فقدت شهيتها للكلام والجدال وللعب الكوتشينة ولزيارة الأيتام.

اكتأبت.

الإضاءة كانت خافتة حيث كانا يجلسان سوياً وهي تسمع أغنية كلاسيكية في الجرامافون وتجلس على كرسي خشبي هزَّاز في ركن من أركان غرفة المعيشة وتحل الكلمات المتقاطعة. ويجلس يوسف وهو يسند ظهره على قدميها وأرجله ممدودة أمامه ويقرأ كتاباً وهو يأكل من كيس شيبيسي كبير جانبه..

قطع صوته الهدوء السائد:

- أنت عارفة يا مشيرة... فرح رغم إنها عيلة لسَّه بس فيها حاجة كده.. قعدت ترغي معايا لما كنت باخد من أبوها مانجة جايبها لبابا من

الإسماعيلية.. المهم سيبك من قصة المانجة دي.. هي شاطرة.. أنكشها كده وتابعها..

- هي بنت مميزة بس أبوها وأمها محاوطين عليها بشكل غير مرغوب فيه.

- ده أونكل رفعت قعد يديني كلمتين عن الالتزام، وإنما الأمم الأخلاق مش عارف مالها..

قاطعته:

- إنما الأمم الأخلاق، إذا ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

- آه بس المهم.. إني بحب فرح..

- وهي بتقول لي إنها بتحبك..

سكتا.. فعاد يقرأ ثم في ثوانٍ قال:

- باقول لك إيه يا موشا..

استدار لها فوجدها ابتسمت فقال مداعباً:

- مين كان بيقول لك يا موشا؟؟

- جدك الله يرحمه.. قول يا حبيبي.

- أنا عايز آجي أقعد معاكي شوية.

نظرت له من تحت نظارتها:

- اشمعنى؟

- زهقت من البيت.. وشغلي أقرب منك إنتي.. بس لو هيضايقك..

- لو هتقعد معايا علشان اللي بتقوله ده، فأهلاً وسهلاً.. لو هتقعد معايا من باب....

قاطعها:

- الشفقة والعطف؟ إنتي بتتفرجي على مسلسلات عربي كتير من بعد القعدة ف البيت؟ اعترفي.

- أبداً ولا بطيقهم.. بس عارفاك كويس..

- ولا عارفاني ولا بتاع، ده أنا كل ما أجيلك ولا بتتكلمي معايا ولا تعرفي أحوالي ولا أي حاجة من بتوع زمان..

- لأ عارفاك ومتابعاك.. والدليل هيفاجئك.. إزيّ عالية؟

- الكلام ده في نشرة أخبار الساعة ١٢ بتاعة أمي.. سيبك منها.. خليكي في المصدر.. ركّزي معايا.

ضحكت ضحكتها الأنثوية العالية وهي تُرجع رأسها للخلف:

- يا سلام ع الضحكة الحلوة.. طب ها؟ موافقة آجي؟

- تعالَ يا سيدي..

بعد أن ساعدها في ارتداء ملابسها وسرَّح لها شعرها في الحمام، حملها وخرج بها ثم وضعها برفق على أقرب كرسي قابله، قالت له إنها لا تريد أن تذهب لمستشفى ولا تريده أن يتصل ليخبر أي شخص الآن.. فنزل على ركبتيه ليصبح في مستواها ونظر في عينيها وسحب منديلاً من علبة بجانبه وقال بصوت رقيق وهو يعطيه لها:

- بس لازم تعملي أشعة..

قالت بأسلوب كبار السنّ الطفولي أحياناً:

- لأ.. مش عاوزة.. مش قادرة!

- أنا هابقى معاكي.. ولو فيها جبس، هجيبلك الدكتور هنا.. ماشي؟

هزّت رأسها موافقة باضطرار، فحملها لسيارته.. أظهرت الأشعة أنه كسر مضاعف. عادا إلى المنزل وأحضر لها دكتور كما وعدها ليقوم بعملية التجبيس. ثم جلست صامتة وحزينة لا تريد أن تأكل ما طلبه لها.

- بس أنا مبسوط..

نظرت له وهي تفهم أنه سيمزح..

- كنتي بلبوصة وشفت كل حاجة! طول عمرك تقول لي إنك شفتي زمان كل حاجة.. بقينا خالصين.

كتمت الضحكة وقالت:

- منتهى قلة الذوق وقلة الأدب وعدم مراعاة الموقف.

فاقترب منها وهو يهجم عليها، وقال بصوت عالٍ كأنه يمثل الشر:

- اطلعي من دول.. أنا وقح إنما جميل!!

وهجم عليها واحتضنها وآخذ يقبّلها حتى ضحكت.

لم يخبرا أحداً كما طلبت. حتى زارها كل أبنائها في أول جمعة بعد تلك الواقعة، وعاتبوا يوسف بشدة؛ لأنه لم يبلغهم. فحكى أن الموضوع كان أبسط من أن يعرفوه وغيّر في الأحداث حتى تبدو عادية جداً؛ قال إنها تعثرت في طرف ثوبها فوقعت، وإنه مجرد كسر عادي (ليس مضاعفاً) وإنها تعاملت

معه على أنه لا شيء، ولم يزعجها ولم تتأثر تماماً. قال إن اليوم مرَّ كأن لم يحدث شيء، تركته يحكي حكايته ويكذب ويجمِّل وهي تنظر له مبتسمة.

تحاملت على قدمها حتى قامت وسقت النعناع والياسمين.. ثم قطفت فرعاً من النعناع وأخذت تشمُّه. تمشَّت للداخل وفتحت باب الشقة لتجد الجرنال على الأرض. مالت وأخدته، ثم ذهبت للمطبخ ووضعت ورقة نعناع في كوب وغلت مياه. ثم خرجت بكوب الشاي والجرنال. رنَّ جرس التليفون.. قررت ألا ترد.. لا تريد أن تتحدَّث مع أحد الآن. فرن جرس الباب. كان محصِّل الكهرباء. اشتكت له أن الكهرباء مؤخراً تنقطع كثيراً. قال: "معلش يا حاجَّة! البلد كلها على كده" قالت: "ما تقوليش يا حاجَّة لو سمحت، قول لي يا مدام". حكَّ المحصل ذقنه وقال: حاضر! أغلقت الباب وتأخَّرت عليه وهي تجهِّز له المال للدفع. رنَّ الجرس مرة أخرى. فلم تهتم ولم تسرع. فتحت الباب وقالت: "يعني أنا مش فاهمة؟ مابقاش فيه صبر؟". جلست تجمع وتطرح في وقت طويل جداً كم يريد هو من المائة الجنيه التي في يدها وكم لها من باقٍ. وكلما يحاول أن يساعدها الرجل تأمره بالسكوت أو بالصبر وتعيد الحساب من البداية. أغلقت الباب وشعرت أن قدرتها على كل شيء تقل، ولكنها حوَّلت شعورها لشعور بغباء الآخرين.

ثم جلست تفكِّر أنها ماذا لو حللت وثبت أنها مريضة فعلاً، ثم حاولت أن تطرد أفكارها المخيفة وهي تدعو دون نطق أن يختفي هذا الدم، ولا يتكرر هذا المشهد ثانية.

رنَّ جرس الباب مرة أخرى.

قالت: مين؟

جاء الرد: أنا.

تحرّكت عيناها يميناً ويساراً، وتجهّمت، وتفاجأت. فقامت بسرعة نحو الباب. نظرت في العين السحرية.. ثم فكرت لثوانٍ.. وفتحت.

كان يوسف.

جاء تلك المرة هزيلاً، فيسهل على من كان يعرفه التخمين أنه فقد أكثر من ٣٠ كيلو من وزنه. شعره طويل يرفعه بإهمال بـ"أستيك". بنطلونه الجينز متسخ وكأن لم يتم غسله منذ قرن. يرتدي قميصاً رمادياً فاتحاً ضِعف مقاسه.

رمقته بنظرة تقزُّز شاملة. ونظرت في عينيه بعتاب. نظر لها في خجل لثوانٍ وحوَّل عينيه للأرض.

سأل: أدخل؟

لم ترد ودخلت وتركت الباب مفتوحاً.

دخل وكان يهم أن يغلق الباب وراءه، فقالت:

- لأ ما تقفلوش.. سيبه مفتوح.

- إنتي خايفة منّي؟

قالت وهي تتجه ناحية "ترابيزة السفرة" حيث جلست:

- خير يا يوسف؟ إيه اللي فكّرك بيّ.. إيه اللي فكرك بينا أساساً؟

جلس في الجهة المقابلة لها مباشرة، ففصلتهما مسافة عرض الترابيزة:

- إنتي حاجة وهمّا حاجة..

- بلا أي كلام فاضي بقى.. عرّتنا! اتربيت أحسن تربية واتعلمت أحسن تعليم وكنّا طايرين بيك.. أنتَ جاي ليه؟ بتورِّيني منظرك ده ليه؟ وقرفك ده أشوفه ليه؟ محتاج فلوس؟ فلوس علشان تروح تشتري هباب أسود وتموِّت نفسك بيهم؟ إخس عليك! إخس!

- أنا مش عايز فلوس..

قام من مكانه كان يريد أن يجلس جانبها، فقالت بحزم:

- يوسف.. ما تجيش ناحيتي.. أنتَ عايز إيه دلوقتي بالظبط؟

ظلّ واقفاً:

- أنا حاسس إني خلاص.. موتي مسألة وقت..

فنظرت إلى يديها وهي تفركها لتداري أي عاطفة قد تُظهرها عيناها:

- وجاي أتأسف لك إنتي.. على الغياب.. وعلى الإحباط.. وعلى خوفك مني دلوقتي..

تغيَّرت نبرة صوته فقد بدأ يبكي، ثم أشار بيديه الاثنين على نفسه:

- أنا آسف على ده.. على اللي واقف قصادك ده...

نظرت له وبدأت في البكاء.

- أنا ماشي.. ونفسي آجي مرة تانية والوضع يبقى مختلف.. بس غالباً ده مش هيحصل.. أنا حاسس...

اتَّجه إلى الباب.. نظرت له من ظهره ثم قالت وكأن الصوت خرج لا إرادياً:

- يوسف.. تعالَ..

اقترب منها وهو ينظر لها ليفهم معنى نظرتها، فوجدها نظرة حنان اشتاق لها، فأسرع خطواته نحوها..

قامت واحتضنته بقوة كادت أن تحطم عظامه.. وهمست:

- "خسارة يا ابني.. والله خسارة".

كـنز العشـري

للحب لعنات ثلاث: بُعد المسافات، ووقوعه من طرف واحد، وغرام الأديان المختلفة.

ابن منتج سينمائي معروف. أراد أن يحضر مع المخرج تجارب أداء لممثلات جدد ليشاركن في فيلم جديد سينتجه والده. وقفت أمام الكاميرا فتاة شابة جمالها طرازه إيطالي: شعرها طويل وغجري وكثيف حيث استطاع أن يظهر بأعجوبة من بينه وجه صافٍ تلمع فيه عيون خضراء، وبداعبه نمش متناثر على الخدين. وجسدها يجب أن تُضبط على مقاييسه أجساد عارضات الأزياء العالميات. ولكنها كانت على مستوى أقل بكثير من الموهبة والذكاء وسرعة التصرف. كانت تؤدي المشهد المطلوب بانعدام موهبة يثير الضحك، كما أنها لا تفهم طلبات وتعديلات المخرج، حتى فقد الأمل وشكرها، وانصرفت. كان من الممكن ألا يتصل بها أحد، فتفهم أن ذلك رفضاً كما يحدث عادة في تلك الحالات. إلا أنه ترك المخرج وخرج وراءها سريعاً. فقد وجد في أن يخبرها الحقيقة بنفسه فرصة جيدة للتعرف عليها.

بعض الرجال يرون في جمال المرأة تعويضاً كافياً عن غبائها.

بعد فترة من اللقاءات المتواصلة، أقنعها بأنها لا تصلح للتمثيل. ومع الوقت أقنعها بالمستحيل و رسم معها خطة له: أقنعها بتغيير ديانتها، ليتزوجا.

للحب لعنات ثلاث: بُعد المسافات. ووقوعه من طرف واحد. وغرام الأديان المختلفة.

أصابتهما اللعنة الثالثة.

عامان من الزواج كانا كافيين لندمهما؛ هو تفاجأ بطباع وخِصال لم يكن أبداً يتوقعها، وهي تفاجأت بأن أهلها الذين أصروا على مقاطعتها للأبد -إلا أخت واحدة هاجرت إلى أستراليا- كانوا يعنُون لها أكثر مما تصوَّرت. حاول ألا يتركها بسبب تخيُّله لقوة الشعور بالذنب الذي سيحتله إذا تركها بلا زوج.. بلا أهل.. وبلا ديانة محددة.. فقط ابنة ستعوقها عن الحياة حرة وعن البدء من جديد.

استمرَّ زواجهما بقوة الدفع الرباعي حتى أتمَّت ابنتهما "كنز" الخامسة. تم الطلاق.

أصبحت كنز بالنسبة لأمها قيداً مُحكماً، ولكنها لن تتخلص منها وتتركها لأبيها، فهي أداة عقاب فعّالة له.. هي دواؤه الذي تعطيه له بكمية تحددها هي، أو تحرمه منه مدة تعييه.. ثم أصبحت تزرع فيها بمهارة امرأة غاضبة كراهيةً وغلاً تجاه أبيها وتحكي لها حكايات من منظورها هي وحدها بعد أن غيَّرت في تفاصيلها، فأصبحت غير حقيقية ولا مكتملة.. حتى كرهته وأصبحت ترفض مقابلته دون حاجة أمها للتدخل.

عاشت كنز طفولة غير سوية.

لا تذكر كم مرة ذهبت متأخرة عن ميعاد بدء اليوم الدراسي، فتم منعها من الدخول وظلت أمها تلقي باللوم عليها وعلى موظفي الإدارة كلهم كالمجنونة، ولا كم اجتماع أولياء أمور تغيّبت عنه لأسباب غير موجودة، ولا كم مرة تخلّفت عن مناسبة عيد ميلاد صديقة لمجرد أن مزاج أمها لا يسمح حتى

باستئذانها، أو لأن السيارة تعطلت بهما في الطريق لأنها تهمل في صيانتها، ولا كم مرة انتظرت أمام النادي حتى أغلق أبوابه لأنها نسيت ميعادهما، ولا كم مرة نسيت أنها لا تحب البيض المسلوق ووجدته في سندويتشات المدرسة اليومية. ولا كم بواباً تشاجرت معه وسبّته بألفاظ خجلت بعدها أن تواجه الشارع فترة، ولا كم مكوجياً هرب منها، ولا كم وظيفة تركتها من أجل بدء مشروع تجاري جديد فتخسر ما جمعت من الوظيفة فيه. ولا كم مرة كان عليها أن تقرأ كل ما حفظت من القرآن حتى تطرد خوفها وتنام وحدها؛ لأن أمها ستقضي الليلة عند صديقة. ولا كم مرة مرضت وتابعت علاجها بنفسها بتوجيه عشوائي من صيدلي، ولا كم نوبة غضب واضطرابات نفسية مرّت بهم أمها وعانت هي من توابعهم. ولا كم مرة تشاجرتا ففتحت أمها دولابها الصغير ورمت بملابسها على الأرض، وطلبت منها أن تغادر بيتها وتذهب لأبيها فوراً لأنها أصبحت لا تطيق قلة أدبها، ثم تعود بعد ساعة وتقول لها إنها سامحتها، فتقضي الليلة باكية في ترتيب ملابسها مرة أخرى وحدها.

الآن، البيت ليس بيت أمها. فقد قام أبوها بنقل ملكيته لكنز بعد أن بلغت الحادية والعشرين، هذا ما عرفته منه شخصياً. فلما كبرت، فهمت الحقيقة وحدها، وبدأت تتصل به ولكن على استحياء، فهما يتعاملان بلطافة الغرباء. ففي أول مرة قابلته بعد سنين، كانت مترددة في أن تقبِّله حتى شدَّها هو إلى حضنه، وما زالت عندما تزوره في بيته، تتصرَّف بحرج حتى إنها تخجل أن ترتدي ملابس المنزل أمامه. جبل جليدي نما بينهما بسبب غباء وأنانية امرأة أخذت لقب أم لحكمة إلهية غامضة. جبل جليدي لن يستطيع هدمه سوى الوقت والعمر فقط.

عاشت كنز مراهقة مذبذبة.

لا تذكر كم مرة غيَّرت "كالون" باب الشقة حتى لا تستطيع أمها أن تدخل: لأنها نبَّهتها أكثر من مرة لمواعيدها المتأخرة، ولا كم حفلة مدرسية لم تدعُها لها، ولا كم مرة رفضت أن تُعرِّف صديقاتها عليها خجلاً منها ومن تصرفاتها المتصابية المحرجة، ولا كم مرة لم تساعدها حين اتصلت بها لأن سيارتها ما زالت تتعطل بها، ولا كم عيد ميلاد لأمها تصنَّعت أنها لا تتذكره، ولا كم زجاجة خمر جمعتها ورمتها لتسيطر على عادة زادت مع سنها، ولا كم الملابس التي وزّعتها على الجمعيات الخيرية دون إذنها لأنها لم تعد تليق بجسدها الذي امتلأ ولا بسنِها، ولا كم صديقة جديدة لها كانت وقحة معها لتطفيشها لأنها تكره أن يدخل أحد من طرفها البيت، ولا كم شجاراً خاضته معها بعنف شرخ صوتها لأيام متتالية، وأصبح الجيران ملمِّين بكل تفاصيله.

التعرُّض الدائم للظلم قد يجعل منك شخصاً يبدو عليه انكساره و ضعفه وهشاشته النفسية، أو شخصاً قاسياً يخفي آلامه بجمود من لا يجد داعياً لرقة مشاعر وطيبة لم يحصل عليهما أبداً. كانت كنز من النوع الثاني.

لم تحدث مواجهة في عنف مواجهتهما الأخيرة:

- "كنز.. أنا مش عايزة أعيش معاكي خلاص.. أنا ما بقيتش طايقاكي! إنتي كبرتي وتقدري تعتمدي على نفسك.. روحي لأبوكي.. سيبيني أعيش حياتي براحتي يا ستي!"

- "آه.. يا حرام.. ما عشتيهاش براحتك خالص! صعبانة عليّ أوي.. تعبتي معايا أوي.. أنا حقيقي مش عارفة أعدّ التضحيات"!!

- "وجودك في حد ذاته كان تضحية.."

- "السيناريو ده ما بقاش يأكل عيش.. غيريه.. فبركي غيره.. وجودي ده نتيجة اختيارك إنتي وجريك ورا عواطفك انتي ومصالحك انتي.. ده نتيجة غبائك انتي!"

- "انتي قليلة الأدب.."

- "وانتي عالة على حياتي وأعصابي وعلى العالم كله.. والبيت ده بيتي.. رسمياً بيتي.. بالورق بيتي.. هتقعدي فيه يبقى تقعدي بشروطي.. غير كده، دوَّري على أي بيت تاني"

- "أنت بتطرديني؟"

- "لأ أنا بخيَّرك.. يا تعيشي سنك.. يا تمشي.. لو عايزة أطردك.. كنت طردتك من فترة.. بس أنا طالعة نضيفة.. تقريباً لأبويا".

- "أنا كمان قذرة.. ها؟"

استدارت ومشت دون أن ترد..

- أنا مش فاهمة! إيه اللي جرى لك؟! إيه اللي جرى لك! لا لا لا ما كنتيش كده! هو أبوكي اللي قواكي عليَّ.

عادت لها:

- شيلي أبويا من دماغك.. الراجل مش بيجيب سيرتك.. انتي لا تعني له شيء! بقى ناجح وليه اسم في البلد واتجوِّز وخلِّف.. انتي واقفة محلك سر.. لا دين ولا عيلة، وبنتك كارهاكي، ولا عملتي لك صاحبة بجد ولا ليكي شغلانة بجد.. ولا..

قاطعتها أمها بصوت يرتجف وهي تبكي:

- اسمعي يا بنتي.. أنا ممكن أبقى أوحش أم في العالم.. فاشلة وفيَّ العبر.. وجوايا نار بتاكلني من الندم على كل حاجة.. انتي ما تعرفيش يعني إيه راجل يقرَّب منك وتبيعي الكون كله علشانه وبعدين ييجي يقول لك أنا آسف مش هينفع علشان انتي طلعتي مش عارف إيه! ما تعرفيش يعني إيه تبقي فجأة مسئولة عن بنت وانتي مجروحة ومكسورة ومهزومة وندمانة وكارهة الدنيا.. إنما ده لأني شخص ضعيف.. ضعيفة يا ستي.. أنا ست ضعيفة.. بتحاسبيني على ضعفي؟ علشان جرحتك؟ طب ما أنا اتجرحت.. انتي مالكيش ذنب.. صح.. وأنا ذنبي إيه؟ بس في الآخر، أنا غلطانة.. ما قدمتلكيش حاجة.. أنا شايفة في عنيكي استبياع.. ناوية ومستعدة تخسريني.. شايفة نفسي وأنا بتحدَّى أمي وأهلي.. بلاش تكرري غلطتي.. وبعدين يا بنتي ما انتي خدتي حقك تالت ومتلت.. وبقالك سنين بتردي لي وبتهيني فيَّ..."

•ثم قامت أمها واقتربت لتحضن وجه ابنتها بكفيها:

- يبقى يا ستي خالصين.. نبدأ صفحة جديدة..

أنزلت يد أمها بهدوء وانخفض صوتها تدريجياً وهو يرتعش، وكأنها تحبس الدموع:

- رغم إن دي المرة الألف اللي تقترحي ده.. بس ماشي.. إنما هاسألك أسئلة لو جاوبتي منهم واحد بس، نبدأ صفحة جديدة..

- اللي انتي عايزاه..

- إيه أكتر فيلم بحبه؟ مين أكتر كاتب بحبه؟ مقاس رجلي كام؟ مقاسي عموماً؟ جات لي "الپيريود" وأنا عندي كام سنة؟ أكتر أكلة بحبها؟ اتخرجتْ من كام سنة؟ تقديري كان إيه؟ بشتغل في شركة اسمها إيه؟

قالت وكأنها غريق وجد طوق نجاة:

- نجيب محفوظ!

نظرت لها كنز ثواني والدموع تتلاعب في عينها وتلمع، ولكنها تحبسها جيداً كما تعوَّدت من سنين:

- أنا عمري ما قريت لنجيب محفوظ!

صمتت أمها وجلست في حزن وسرحت.. اتجهت كنز إلى غرفتها.

جلست وحدها تفكِّر هل تستمع لكلام طبيبها النفسي وتتصالح مع نفسها ومع الوضع كله وتبدأ هدنة مع أمها؟ هل أمها تستحق فرصة فعلاً؟ ولكنها أعطتها من قبل الكثير من الفرص، ثم أخذت تتساءل ماذا لو رحلت فعلاً؟ أين ستذهب؟ ليس لها أحد غيرها. لكنها لن تغيِّر كلامها حتى لا تعتقد أمها أنها لا يمكن أن تستغني عنها، ستترك الشعور بالذنب يعتصرها كي تتغيَّر وتنتبَّه لسوء حالتها.

حبُّ الأهل غريزي.

لم تتكلم أمها معها كلمة طوال أسبوع، ولم تغادر المنزل ولو يوم على غير عادتها، ولم تتحرَّك من أمام شاشة الكمبيوتر الخاص بها إلا للنوم.

لم تحاول كنز أيضاً خلق أي حوار؛ ليس فقط تأييداً لحرب الصمت الباردة تلك، ولكن ظروف الأسبوع عموماً كانت سيئة: أسبوع من العمل المُهلك

الذي تكرهه: هي موظفة في خدمة العملاء أي أن عليها التحلي بابتسامة راقصي العروض المملة، وأدب القرود، وترديد نفس الكلام يومياً، وتحمُّل أخطاء تكنيكية لا ذنب لها فيها بل والاعتذار عنها، ولا يكفي كل ذلك بعض العملاء السخفاء كهذا العميل الذي تم قطع الخدمة عنه؛ لأنه لم يدفع فاتورته، فسبَّها قائلاً: "ما إنتي لو مش غبية.. ماكنتيش اشتغلتي شغلانة البغبغانات دي"، كانت تودُّ أن تقول له: "يا عميلي العزيز الاحتياج المادي هو سيد الاختيارات أحياناً.. أنا في الأساس محامية.. الوظيفة الملائمة ليست دائماً متاحة"، ولكنها شكرته بدلاً من ذلك.

كما أن هذا الأسبوع هو الأول منذ خمسة أشهر الذي يمرُّ دون أن تتلقَّى هديتها الأسبوعية يوم الجمعة ليلاً من هذا الشخص الذي لا تعرفه، ولم يترك أبداً اسمه مع الهدية، ولكن يبدو من اختياره للهدايا أنه يعرفها جيداً.

وفي هذا الأسبوع، قست على نفسها وقرَّرت أن تتوقَّف عن زيارة طبيبها النفسي، هو يعجبها كرجل.. ترتاح له كرجل، ليس فقط كطبيب، ولكنه متزوِّج، فمن العيب أن تظل مواظبة على زيارته وتستغل احتياجها الطبي للتقرُّب منه.

ستغير طبيبها، تغيبت بالفعل جلستين، كان تودُّ أن يتصل أي شخص من العيادة ليسأل عن سبب انقطاعها عن الذهاب، ولكن لم يحدث ذلك، فأحزنتها فكرة أنها مريضة من وسط آلاف يذهبون له، وآلاف لا يذهبون.. فلماذا سيهتم؟

استيقظت من النوم.. وجدت باب حجرة أمها مفتوحاً.. غريبة! عادتها أن تصحو ظهراً وليس قبل العاشرة صباحاً أبداً. دخلت الحجرة بتسلل بطيء حتى تلمح فقط ماذا تفعل في ذلك الوقت وتنسحب سريعاً، ولكنها لم

تجدها.. لم تجد شيئاً في الدولاب ولا مكياجها المتناثر ولا عطورها ولا أي شيء. الحجرة خالية ومنظمة. اتصلت بها. الهاتف مغلق.

نزلت من البيت في نصف صدمة ونصف حيرة ونصف حزن ونصف أمل غارقة في التفكير.. وجدت عم طه البواب يناديها ويبدو عليه القلق والإحراج والتردُّد والخوف من ردّ فعلها:

- آنسة كنز..

- خير يا طه؟

- خير إن شاء الله.. أصل المدام..

فقالت في رعب:

- مالها؟ حصل إيه؟

- لا.. خير خير.. قالت لي أبلغ حضرتك.. إنها راحت استراليا لأختها.. ومش عارفة راجعة إمتى..

يحيى سالم

لكل منا ذنب في تعاسته مهما كانت الظروف، حتى لو كان ذنبه السكوت.

كان يومَ تنظيف البيت الأسبوعي، وقد جاء بالصدفة مبكراً عن ميعاده المتوقَّع. كانت الخادمة قد أنهت عملها وتغيِّر ملابسها استعداداً للرحيل، وتركت حقيبتها ملقاة بجانب باب الشقة نصف مفتوحة. وهو يغلق الباب لمح ساعة من ساعاته تلمع داخلها. صمت تماماً. ترك زوجته تحاسبها وتسلِّم عليها. بمجرد أن خرجت من الباب. قال لزوجته إنه نسي شيئاً في سيارته، وخرج وراءها.

بصوت منخفض ونبرة هادئة جداً لم تتغيَّر حتى نهاية حوارهما القصير، قال:

- أنا آسف إن غصب عني عيني جت في شنطتك..

بان على ملامحها الرعب والارتباك، فقال:

- ممكن ساعتي؟

رسمت على وجهها ملامح الإنكار والاستغراب، وسألت:

- ساعة إيه يا أستاذ يحيى؟

- أرجوكي بلاش الأسلوب ده.. إحنا عارفينك من زمان.. مفيش داعي للمشاكل.. ودي هدية قديمة وباعتز بها جداً.. فأرجوكي اديهالي.. وتنتهي الحكاية على كده..

نظرت له في انكسار، وفتحت حقيبتها، ودبت يدها فيها ثم أخرجت ساعته، وأعطتها له، وقالت:

- حقك عليَّ يا بيه..

- أنا مش هقول لـ"مها" أي حاجة.. وما تكرريهاش تاني.. لو سمحتي..

هكذا كان يحيى.. على أعلى درجة من التحضُّر والطيبة التي تصل حد اللا معقول أحياناً.

يصل عيادته في السادسة مساءً. يتابع نفس الحالات أو يعالج نفس الأمراض، فأبناء المجتمع الواحد غالباً لا يشكون شكاوى نفسية مختلفة. يعود إلى نفس البيت. يرى نفس الزوجة. يسمع منها نفس الحكايات اليومية. يرد نفس الردود. ينام ويصحو في نفس الميعاد. يمارس رياضته الصباحية في نفس النادي. يقرأ جرائد يومية تنقل أخباراً عن نفس القضايا. يستعدُّ ليذهب لعيادته. إلا يوم الجمعة، يصحو قبل الصلاة بساعة. ويعود ليقضي يومه كله مع زوجته يتحدَّثان في نفس المواضيع التي غالباً لا تهمه، ثم يتناولان العشاء ليلًا في نفس المطعم الإيطالي.

أخوه الأكبر رفض تماماً أن يلتحق بكلية الطب كما أراد أبوه، وأحب فتاة أقلَّ من مستواهم اجتماعياً وتزوَّجها. أما بالنسبة ليحيى، حرية الاختيار كانت ترفاً لم يكن متوفراً. كان هو النسخة التي قرر والداه أن تكون مُعدلة من أخيه. طبيعته المستسلمة المهذبة ساعدتهما على ذلك. على خطى والده سار، والتحق بكلية الطب واشتغل طبيباً نفسياً، ثم اختارت له أمه زوجته.

لكلٍّ منا ذنب في تعاسته مهما كانت الظروف، حتى لو كان ذنبه السكوت.

زواجه غارق في بئر لا قرار له من الروتين. يجمع بينهما أشياء أقل كثيراً من شغف الحب. كان بينهما "تعوُّد" و"احترام" و"عشرة" و"بيت" وتلك الأشياء التي يقولون إنها تُغْني عن الحب. ولكنها لا تُغْني عنه؛ لا تجمعهم نفس الاهتمامات. تعجز عن فهمه بسهولة، يجب عليه أن يشرح ما يقصده كثيراً. لا يمكنه قراءة أفكارها من عينيها من على مسافة. لا يفتقدها حين يضطر للسفر. لا يمكنه تحديد ذوقها؛ أغلب الهدايا التي يختارها لها لا تعجبها ولكنها تتصنَّع الانبهار. يشكران بعضهما كثيراً على أبسط التصرُّفات وكأنهما غريبان. لا تضحكهما نفس الأشياء ولا تحزنهما نفس الأشياء ولا يتأثران لنفس الأسباب. لا يتعانقان ولا يتبادلان القبلات إلا بسبب معين.. تفاعلاتهما الجسدية العاطفية قليلة؛ لأن الرغبة يحدُّ منها ضعف الولع.

بكى يحيى في مشهد فيلم Pursuit Happyness عندما كان لا يجد البطل مأوى له ولابنه فاضطر أن ينام في مرحاض عام، وحينما أراد أن يدخل أحد، اضطرَّ أن يحتضن ابنه النائم ويسدَّ الباب بقدميه وهو يبكي، فقالت له وهي تضحك:

- إيه يا يحيى ده؟ ده فيلم! ما فيه أكتر كده بيحصل في الواقع، يعني المفروض بقى لما نشوف أطفال الشوارع ولا بتوع المجاعات مثلاً نعيَّط برضه؟!

لم يفكر في الانفصال عنها حتى بعدما عرف أنها لن تنجب أبداً. يعرف كم سيحزنها خسارته أو يعرف أنها لا تقبل الخسارة عموماً، ويعرف كم هي حريصة على صورتها الكاملة أمام المجتمع.

أي طعام تعدُّه يأكله. أي قرار تتخذه لا يجادلها طويلاً فيه. أي فستان ترتديه جميل. أي مناسبة تطلب منه أن يحضرها معها يوافق. لا يعلو صوته أبداً. لا يشكو أبداً. لا يعطي ملاحظات سلبية على أي شيء أبداً. يبتسم كثيراً. علاقته جيدة بأهلها. استطاع أن يوهم زوجته بحب ليس موجوداً.

من قال إن حدس المرأة لا يخدعها أبداً، وأن من السهل عليها أن تكشف رجلاً يلعب دور المحب؟

عاش خمسة وثلاثين عاماً، قضى نصفهم الثاني في إرضاء الكلِّ إلا نفسه، ومن يفضل دائماً رضا الآخرين على راحته، يعيش هو غير راضٍ ولا مسرور أبداً.

انقلبت حياته رأساً على عقب منذ ستة أشهر. دخلت مكتبه في العيادة فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها. جمالها طرازه إيطالي: شعرها طويل وغجري وكثيف حيث استطاع أن يظهر بإعجوبة من بينه وجه صافٍ تلمع فيه عيون خضراء، ويداعبه نمش متناثر على الخدين، وجسدها يجب أن تُضبط على مقاييسه أجساد عارضات الأزياء العالميات.

لم يدخل هذه العيادة إلا التعساء، ولكنها الحالة الوحيدة الذي زادتها تعاستها هدوءاً جعل كلامها يخرج ببطء وتعبٍ أنثوي مثير. اسمها زادها تميزاً: كنز.

ألزم ميثاق شرف مهنة الأطباء بأن يربأوا بأنفسهم عن ارتكاب ما يخلُّ باحترام مهنتهم من قول أو فعل داخل العمل وخارجه. ولكن الحبَّ يضرب بكل المواثيق المهنية والمنطقية عرض الحائط.

مقارنة بأمراض نفسية كـ"البارانويا" والبلادة والتوهم بالمرض والخرف المبكر والصرع والوسواس القهري والفصام النفسي، كان الاكتئاب الحاد الذي أصاب كنز مرضاً بسيطاً بالنسبة لطبيب متمرّس.. ولكنه كان يتعمّد أن يطيل من وقت الجلسات ويكثر من عددها.

أصبح ينتظر الأيام التي سيقابلها فيها، فيعتني بمظهره أكثر. يسمعها باهتمام الأحباء ومهنية متخصِّص في معاناة النفس البشرية. يسمعها باهتمام طبيب وشغف عاشق. يسأل أسئلة ستساعده على العلاج، وأسئلة تطفئ فضولاً شخصياً. يخرج منها إجابات تساعد على تحديد أدوية، وإجابات تساعد على تحديد هدية الأسبوع.

عرف عنوانها من الاستمارة التي يملؤها أي مريض في الزيارة الأولى لدكتور. وفي كل يوم جمعة، يوصل زوجته بعد عشائهما، ويذهب ليختار هدية لكنز تناسب ذوقها أو احتياجاتها كما يعرف من حكاياتها. ويعطيها لعم طه بواب عمارتها، ثم يعطيه مائة جنيه ثمن أن يقول إن "واد صغير" قد أوصلها وجرى.

وضعه الحرج مهنياً واجتماعياً هو الذي جعله يحاول أن يُسعدها بتلك الطريقة الخفية.

حكت له في جلسة عن هدايا الشخص الغريب بعد شهر من إرساله لها، بعد أربع هدايا.

- مش مهم تعرفي هو مين.. استمتعي بالإحساس.. مش بتتبسطي؟

- حياتي مش ناقصة تفكير في مين اللي يعرفني وبيبعت لي هدايا كل جمعة في نفس الميعاد.

- مين قال إنه يعرفك؟

- مين قال إنه يعرفني إيه! ده حافظني.. ده كأنه قاعد معانا.. عارفني زي ما أنت عارفني كده.

- مش يمكن أنا؟"

- أنا بكلمك جد.. يمكن أبويا؟ بس بابا حلف لي برحمة أبوه إنه مش هو، وبصراحة أبويا ما يعرفنيش للدرجة دي.. أنا مرة هنزل أقفش الواد اللي بيجيب الحاجة ومش هسيبه إلا لما يقرّ أو أسيّب أمي عليه.

- يمكن طه البواب؟

- هو ده آخري فعلاً.. البواب!

- أنا من رأيي.. تستمتعي بالفكرة نفسها.. حد طايل الدلع ده؟ المهم الأدوية أخبارها إيه؟

- أنتَ عرفت اسم البواب منين أو إن عندي بواب أصلاً؟

- منك.

- أنا مش فاكرة إني قلت لك.

- أومال يعني أنا عرفت من حظلك اليوم؟

ضحكت، فالتقط أنفاسه وتصنَّع ضحكة طبيعية. شعر بتأنيب الضمير، فهو تحوَّل من مُستغل لمهنته إلى كاذب في لحظة.

- يبقى اكتب عندك "آلزهايمر" كمان.

- لمعلوماتِك اسمه الزايمر ونادراً لما ييجي لحد أقل من ٣٠ سنة.. اطمّني.

عيادته تخلو من جوِّ عيادات الأطباء الكئيب.. فبمجرد دخولها، يتسلَّل لأذنيك بهدوء أفضل الأعمال الموسيقية لـ"بينك فلويد" و"ذا دورز" و"إيريك كلابتون" و"چوني كاش".. زيَّنت حوائط مكتبه من الداخل بوسترات هؤلاء وبوسترات أخرى لأقوال مأثورة بالعربية وبالإنجليزية. اختار أن يكون قوة إضاءة المكتب تدريجية تصل إلى أقل مستوى عند مكان جلوسه ويمكنه التحكم بها. وراء الكرسي الذي يجلس عليه لوحة كبيرة الحجم غطتها عشوائياً صور شخصية وتذاكر حفلات وتذاكر سينما وأنصاف تذاكر سفر وخريطة العالم؛ حيث ألصق على كل بلد زاره شيئاً صغيراً اشتراه من هناك. على يمين ويسار اللوحة رفَّان خشبيان صغيران، وعلى كل منهما ثلاثة كتب فقط.

ظلَّت كنز تنظر وراءه وهي تحكي أنها تريد أن تتخلَّص من وظيفتها الحالية في أسرع وقت ممكن، وتعمل بمكتب محاماة، وتبدأ بشكل جدي حياتها المهنية:

- أنت مركَّزة مع إيه ورايا؟
- قول مش مركزة مع إيه!
- إشمعنى المرة دي.. ما هم نفس الحاجات زي كل مرة.
- بس كل ما الواحد بياخد على المكان أكتر.. كل ما بيستريح يركز في تفاصيله أكتر.. ممكن أقوم أبص من قريب؟
- ممكن جداً.. اتفضلي.

قام من كرسيه وجلس مكانها حتى يترك لها مساحة للحركة كما تشاء. ظلَّت تتفقَّد ذكرياته المعروضة أمامها بترحيب منه وفرحة باهتمامها.

أخذت تعلق دون أن تنتظر رداً:

"رحت البلاد دي كلها؟"

"إيه ده! كنت بتلعب تنس".

"شكلك ما اتغيَّرش"

ثم التفتت له:

- مفيش صورة ليه مع مراتك؟

رد:

- هحط واحدة قريب.

استدارت مرة أخرى. وثبتت عينيها على كتاب وصاحت:

- ده أول كتاب لفاضل زكي؟! أنا بدوَّر على الكتاب ده من فترة.

ردَّ بهدوء:

- خديه.

- بالسهولة دي؟

- حماسك له أقوى مني.. يبقى تستاهليه عني.

- أنا هقراه وهرجَّعه.

- اللي يريحك.. بس أنا أحب إنك تحتفظي بيه.

سحبته إلى شنطتها، وعادت لتجلس في مكانها، ولكنه لم يقم، قال لها حين وصلت عنده ووقفت أمامه:

- لو حابة أساعدك في موضوع الشغل.. أنا أقدر.. فيه واحد صاحبي مدير في شركة محاماة.

لمعت عيناها في تأثُّر من لم يُعرض عليه أبداً المساعدة:

- هو أنتَ كل عيان بيجيلك بتساعده بشكل شخصي؟

- مش كل عيان بييجي لي.. بيهتم يتفرَّج على حاجاتي الشخصية.

نظرا لبعض ثواني وقالت:

- شكراً على الكتاب.

أخذت حقيبتها وغادرت بسرعة.. أراح ظهره على الكرسي حتى سمع الباب يغلق وراءها، فأغمض عيناه وتنهدّ بعمق.

أي طعام تعدُّه يأكل منه قليلاً. أي قرار تتخذه يجادلها بعصبية عن أسبابه. أي فستان ترتديه عادي. أي مناسبة تطلب منها أن يحضرها معها يعتذر ويتحجَّج. يعلو صوته كثيراً متبرماً من أشياء بسيطة كتغيير مكان كتاب أو تحريك كرسيه المفضل. يشكو كثيراً. لا يعطي ملاحظات إيجابية على أي شيء تقريباً. يبتسم عند الضرورة. علاقته بأهلها أصبحت سطحية يحكمها الواجب فقط. شكَّت زوجته أن حبَّه لم يكن يوماً موجوداً.

تغيَّبت عن العيادة لجلستين. توتَّر. دخل العيادة يوماً واتَّجه ناحية محمود، وقرر أن يطلب منه الاتصال بها ليسأل عن سبب تغيُّبها، ثم في ثوانٍ أدرك كم سيفضحه هذا التصرُّف الغريب، وكم سيُخرجه عن وقاره كطبيب، فتراجع بعد أن كان نادى عليه ووقف أمام مكتب محمود صامتاً كأنه يحاول أن يتذكَّر شيئاً. فتكلم محمود؛ في محاولة منه لجذب أطراف الحديث:

- مساء الفل يا دكتور.

- مساء الخير يا محمود.

- أؤمرني حضرتك.

- لا.. كنت عايز أتطمن على وردة..

- بخير الحمد لله.. بتحضَّر للدكتوراه بس مش زي حضرتك.. اللي هي بيدرِّسوا بيها في الجامعة يعني..

- أيوه أيوه فاهم.. طب ومبسوطة بالشغل في المدرسة؟

- وبتدعي لك والله..

- يا عم دي مش أختك بس.. دي أختي أنا كمان.. خليها هي اللي تكلمني لو فيه أي حاجة تانية محتاجاها..

- ربنا يكرمك يا دكتور.

سخطه زاد من تلك التصرفات المراهقة التي لم يعرفها حتى حين كان مراهقاً. ثقل سره جعل شهيقه وزفيره صعباً، وجعله ضيق الخُلق. أصبح شعوره بالتقزُّز من نفسه يحتله أكثر وأكثر؛ لماذا يجعل من نفسه خائناً وكاذباً، في حين أنه يمكن ولمرة واحدة في حياته أن يختار سعادته هو؟

شارك أخاه الوحيد سره. احتواه بتفهُّمه المعتاد وشجَّعه على ما يريد، وساند قراره في الانفصال، حتى إن لوم وعتاب أم وأخت زوجة يحيى كان يتلقاه ويرد عليه هو، ولا ينقل ليحيى سوى الضروري جداً منه، حتى تم الطلاق في ظروف هادئة.

في يوم جمعة ليلاً وقف ينتظرها قريباً من باب العمارة بالهدية.. بنفسه.

مها خاطر

هناك امرأة تتزيَّن لأنها تجد في زينتها إضافة تزيد لجمالها الداخلي جمالاً خارجياً، أي رغبة في الكمال، وامرأة تتزيَّن لأنها لا تملك مؤهلات للقبول سوى جمالها، ونقصان أي شيء فيه يهزُّ توازنها كله. فهي لم تعرف للبشر طريقاً إلا عبر عيونهم، لا قلوبهم.

دخلت المطبخ، وأدارت موسيقاها الصاخبة على جهاز اللابتوب. وبدأت تُخرج ما ستعده من الثلاجة. فدخل زوجها سريعاً وكأنه كان ينتظر أن تبدأ الموسيقى:

- مها.. مها.. وطي الصوت شوية! الجيران نبّهونا أكتر من مرة وأنا قلت لك، وكان معايا تليفون وقفلته علشان مش عارف أكمله..

قالت وهي تخفض مستوى الصوت وتنظر له في اندهاش:

- مش عارف تكمل إيه؟ ده أنا لسه مشغلاه حالاً يا يحيى!

- ما علينا.. اسمعي على قدك طيب!

- هو فيه إيه بالظبط؟ إيه الموضوع؟ أنتَ مالك ما بقيتش طايق لي حركة ولا نفَس كده ليه!

العصبية المبنية على دلال لا معنى له وغباء متكرر، تزيد من حيث القبح، عن العصبية المبنية على حق.

لا يمكن أن تخرج من باب البيت دون استخدام أدوات التجميل الأساسية بالنسبة لها: قلم تحديد الجفون، وأحمر الخدين وأحمر الشفاه. ولا يمكن أن تحضر أي مناسبة دون أن تضع ماكياجها كاملاً. كثير من الفتيات لا يُجدن المشي بالكعب العالي، أما هي فلا تعرف كيف تمشي بحذاء بلا كَعب. تزور الكوافير يومياً قبل الذهاب إلى عملها، في السابعة صباحاً، وهو يفتح لها خصيصًا قبل ميعاده، ذلك لتصفيف شعرها فقط. أما أسبوعياً تذهب لقسم التجميل الخاص بالجسم والبشرة والأظافر: فهي لا تهدأ ما دامت أظافرها لا يطليهم اللون الأحمر أو البني الغامق أو أي لون غير فاتح أو هادئ. شعرها تفرقه من المنتصف، يبدو طويلاً جداً وكثيفاً ولكنه غير طويل وخفيف، فقد زادته طولاً وثقلاً بشعر إضافي صناعي. تشتري ملابسها أثناء رحلتها السنوية إلى إيطالياً بصحبة والدتها وأختها، والتي تتكرر مرة في بداية الشتاء ومرة في بداية الصيف. هي وأمها وأختها لو كنَّ يستطعن ألا يتحركن أبداً إلا سوياً لفعلوا ذلك. لن تقابلها دون نظارتها الشمسية لو قابلتها صباحاً. لا تتوقف عن الحديث في تليفونها. لا تمرُّ أمام مرآة إلا وتقف لتتفقَّد هيئتها وشكل جسمها، وتشفط بطنها أكثر ثم تتضايق لأنها ليست أقل وزناً، رغم أنها تقريباً لا تأكل أي شيء وتواظب على فصول "الأيروبكس". لم ينضج ذوقها الفني.. توقف نموُّه عند سنِّ مراهقتها.

هناك امرأة تتزين لأنها تجد في زينتها إضافة تزيد لجمالها الداخلي جمالاً خارجياً أي رغبة في الكمال، وامرأة تتزين لأنها لا تملك مؤهلات للقبول سوى جمالها، ونقصان أي شيء فيه يهزُّ توازنها كله، فهي لم تعرف للبشر طريقاً إلا عبر عيونهم، لا قلوبهم.

أبوها رجل أعمال، بعد انفصاله عن والدتها، سافر إلى دبي واستقرَّ وحده هناك. علاقتها به وبأهلها من ناحيته، جيدة جداً ولكنهما لا يتقابلان بشكل

منتظم، قد يزورهم في الشهر مرتين، وقد تمر سنة يزور مصر مرة، وقد لا يأتي مدة طويلة ويدعوهم للسفر إليه.

دخلت غرفة النوم بعد أن أنهت محادثة هاتفية مع والدتها استمرَّت لأكثر من ساعتين:

- أنت ليه نايم في الناحية بتاعتي؟

تحرَّك للناحية الأخرى من السرير وهو يقول:

- آسف.

ثم قال كأنه تذكَّر شيئاً:

- انتي رايحة الشغل بكرة؟

- لأ مش قادرة خالص عليهم وعلى قرفهم.

- انتي كل أسبوع ما تروحيش يومين..

- آه.. إيه المشكلة؟ يخصموهم.. كأنهم تمن راحتي.

- مش فكرة فلوس.. فكرة التزام.

- يحيى.. تصبح على خير!

تعمل بمجال التسويق بإحدى الشركات "المالتي ناشونال"، ولكنها لا تتقدَّم وظيفياً بما يتناسب مع خبرتها، والمدة التي قضتها في نفس الشركة منذ تخرُّجها وحتى الآن.. حتى عامها الثلاثين.. ومعروف عنها بين زملائها أنها بطيئة الفهم ولا تنجز المطلوب منها بسهولة وتسأل أكثر من مرة عن نفس الأشياء التي يكون قد تم شرحها أمامها، كما أنها تحت أي ضغط تنهار، وتدخل في نوبة بكاء وتطلب الانصراف.. وتنصرف. زملاؤها يعاملونها معاملة

خاصة ولا يرفدها مديرها ولا يتمنى أحد ذلك لأنهم يعرفون كم هي فعلاً طيبة رغم كل ما تحاول أن تتظاهر به من خبث، ورغم نوبة الغرور المفاجئ التي تنتابها أحياناً، ورغم تباهيها بأصولها وعائلتها المقحم في أي حوار عام.

هي لا تهتم بفكرة النجاح العملي ولا المستقبل المهني، هي تشتغل لتقتل ملل فترة الصباح حين يكون الكل مشغولاً عنها. هي تشتغل لتملأ فراغها العقلي والروحي فقط، لا للمال ولا للطموح.

قبل زواجها بسنتين، كانت تجمعها علاقة حب طويلة مع لاعب كرة قدم مشهور. لم يكن بنفس الشهرة أول مرة قابلته، ولكن موهبته زادت من سرعة نجاحه. كان النموذج الحديث لأغلب لاعبي الكرة، فقد جاء من الأقاليم ولم ينهِ تعليمه ولا يمكنه الاحتفاظ بلباقته الكلامية لمدة طويلة، ولا يعرف عن الحياة العامة شيئاً خارج حدود عمله: قواعد اللعب المضبوطة وتاريخ الكرة العالمية وأهم محترفيها وكيف يتم حسم قرار الانتقال من نادٍ لآخر. ولكنه كان رجلاً متفهِّماً وواعياً. كما أنه كان يجيد التعامل معها ويعرف جيداً متى يستجيب لها، ولدلع من لم يقل له أحد يوماً "لا". ويعرف كيف يكون حازماً لأن الدلع قد زاد عن حده. كان مناسباً لها لو لم تنظر للفجوة الاجتماعية الهائلة بينهما.

حين جاء ليتعرَّف على والدتها لم تكمل مدة زيارته أكثر من ربع ساعة.

- أنت اسم عيلتك إيه؟ آخر الاسم خالص..

- لا حضرتك ماليش اسم عيلة من اللي حضرتك تقصديهم.. آخر اسمي خالص شكري.

- والدك كان بيشتغل إيه؟

- والدي أتوفى من واحنا صغيرين.. وكان الله يرحمه ساعي بريد.

- والدتك؟

- والدتي مش متعلمة وما اشتغلتش قبل كده..

- أومال كنتم بتعيشوا إزاي؟

- لما أبويا أتوفى.. كلنا نزلنا اشتغلنا.. واحنا تمانية.. فكل واحد فينا كان بيصرف على نفسه ويدِّي لأمي...والحياة مشيت.

- طيب ده شيء عظيم..

- الله يكرمك..

- طيب.. لو بكرة الصبح صحيت بنتي وقالت لك عايزة أروح فرنسا أشم هوا.. عايزة أغيَّر عربيتي زهقت منها.. هتعرف توفَّر لها ده؟ عقليتك تتقبل ده؟ مادياً تقدر؟

- عقليتي بتتقبل المعقول.. وبالنسبة للفلوس.. أنا لو معايا جنيه، الجنيه هيبقى لمها.. ولو معايا ١٠٠ جنيه الـ١٠٠ جنيه هيبقوا لمها.. للي هي عايزاه.. وأنا حضرتك مش م النوع اللي بيبعزق يمين وشمال.. ومفيش مرة اتكتب كلمة عن سلوكي..

- طب لو فرضنا بكرة الصبح، إنك اتشلِّيت.. لا قدَّر الله طبعاً وألف بعد الشر.. بس كل شيء وارد.. هتعيشوا منين؟ هتفتح مطعم كشري وتعمل برامج؟ ما هو اللي أعرفه إن مش معاك شهادة وإنك رافض تدرس..

- رافض أدرس فعلاً لأني لو درست هيبقى علشان حضرتك شخصياً.. والناس.. يعني أنا لو اتشليت زي ما حضرتك بتقولي بكرة الصبح..

- لا قدر الله.

- تمام.. لو ده حصل.. مين هيشغَّل في شركته واحد عنده ٢٦ سنة ومشلول؟ ولو حتى ماكانش شلل..

- بعد الشر.

- لو حتى كانت إصابة ومش بأدِّي بعدها واعتزلت.. هشتغل فين وأنا عندي ٢٦ وماليش غير في الكورة؟

- تشتغل رجل أعمال.. تفتح شركة..

- ما هو مش كل رجال الأعمال معاهم شهادات.. ولا كل اللي نجحوا نجحوا بشهادات.. وأنا عارف إن مش زي مها ومش متربي على نفس المستوى، ومش متعلم، وجاي من حتة تانية خالص غير اللي أنتوا فيها.. بس أنا بحبها.. ربنا يعلم أنا بحبها قد إيه.. وظروفي المادية النهارده تسمح لي بكل طلباتكم وإني أعيِّشها زي ما هي عايشة بالظبط.. ومش هروح أجيب شهادة علشان أثبت ده.. ولو حضرتك ما تقبلتنيش.. أنا عارف إنه مش علشان الشهادة بس.

لم تكتفِ أمها برفضه بل هاتفت والدها - وهما على علاقة صداقة قوية لا يشوبها خلافات المطلقين، ولديها رصيد عنده يكفي ليصدِّقها في كل شيء دون أن يتدخَّل ليتأكد- وطلبت منه بحسم ألا يستجيب لانهيار ابنتهما، وإنها مجرد مبالغات بنات ليس أكثر، وألا يتعب نفسه ويأتي لمقابلته كما تلحُّ مها عليه، وأبلغته بأن ذلك الزواج لن يتم إلا على جثتها.

اضطرَّت أن تنهي علاقتها به ليس فقط للاستحالة التي خلقتها أمها وعملت على تغذيتها بكل نقط ضعفه، ولكن أيضاً من أجله هو، أصبحت لا تريد أن

يصل له ما يقال عنه حتى لا تؤثر فيه،أي كلمة تعيبه أو يجرحه أي وصف. أرادت أن يبعد حتى لا تكون سبباً في موقف ضعف أو إحباط. في عيونها، كان أكبر بكثير من تكرار المحاولات رغم إهانة الرفض.

خاصمت أمها أربعة شهور كاملة. لم تقل لها فيهم كلمة. لم تهتم الأم في أول أسبوع، ثم بدأت محاولات الصلح.. والهدايا.. والمكالمات.. ورسائل هاتفية من نوع: "تفتكري فيه حد بيحبك في الدنيا أكتر من مامي؟".. حتى تدخَّلت أختها وصالحتهما.

في مجتمعنا، يتحكَّم الأهل بتعنُّت شديد في زواج أبنائهم وخصوصاً لو فتاة.. والتي تكون غالباً قد بلغت سناً يجعلها بشكل رسمي وقانوني مسئولة وحدها عن قراراتها واختياراتها، وضرورة التدخُّل برخصة الشقاء والتربية ووجع القلب والنية الصادقة والرغبة في الأفضل دائماً، هي شيء منطقي، ولكنهم أحياناً يعتقدون أن لديهم "بلورة سحرية" تكشف لهم المستقبل بما فيه.. وأن وجهة نظرهم غير قابلة للنقاش؛ فهي نضجت مع الخبرة والتقدُّم في العمر وسليمة بنسبة مائة في المائة.. وإذا صدقت توقعاتهم تباهوا ببُعد وعمق رؤيتهم.. وإذا أخطأوا قالوا "نصيب"!

عندما وافقت أن تتزوج يحيى بعد أن طلبت والدته من والدتها أن يتقابلا ويتعارفا.. وافقت ليس لأي شيء ولا لأي سبب سوى أنها لاحظت انبهار أمها به؛ فهي لا تريد أن تُهلك قلبها وأعصابها معها مرة أخرى، ولأنه "غير متعب" ومهذب.

سيريحها.

- لأ.. مش عايز.

- دي المرة الألف اللي أقول لك نخرج معاهم.. وما تجيش.

- علشان أنا مش بحبهم! وعلشان بتقعدوا ف أماكن مقفولة وكلها شيشة ومزيكا وحشة وعالية.. ومش بتبسط.. ومش بالاقي حاجة أتكلم فيها.

- طب ما أنا بروح معاك كل أسبوع ناكل في نفس المكان الضلمة الغريب ده.. نفس الأكل.. ونتكلم في نفس المواضيع.. وما بقولش لأ علشان أنتَ بتحبه..

- والله أنا لسه عارف دلوقتي إنك ما بتحبيهوش.. انتي عمرك ما قلتي!

- طب ما تفكَّرني كده أنت قلت لي إمتى إنك ما بتحبش صحابي؟

- خلاص.. يبقى أنا مش بحب صحابك ولا الأماكن دي.. وإنتي مش بتحبي المكان اللي بحبه.. يبقى روحي إنتي لصحابك.. وما نبقاش نروح المكان اللي بحبه.. نغيَّره.. أو ما نروحش أصلاً.

كانت ستقول شيئاً قبل أن يعلو صوته:

- مها! أنا مش قادر لشغل العيال ده.. خلصنا!

ذلك هو يحيى منذ شهور فقط. لم يكن كذلك أبداً. كانت حتى تستغرب أنها لم تره يوماً يفقد أعصابه منذ أن تعرَّفت عليه.

- طب أوكيه براحتك.. هنزل أنا!

ظلَّت تقود وهي تفكِّر.. حتى وقفت أمام المكان حيث يوجد أصدقاؤها، وظلَّت داخل سيارتها وشعرت بقشعريرة رعب تنتشر داخل جسدها، وبدأت الاحتمالات الممكنة تحتلُّ كل مراكز التنبيه في المخ، ولأول مرة تشعر بقيمته الحقيقية عندها.. ولأول مرة تشعر أنها لا تريد أن تخسره أو لا تريد أن تخسر هذا النوع من الاستقرار. أخذت تفكِّر وتسترجع الذكريات والصور

وكل المواقف التي جمعتهما. لماذا تغيَّر يحيى؟ وهي لم يتغيَّر بها أي شيء قد يُغيِّره؟ ما الجديد في حياتهما؟ أيكون له موقف آخر من عدم قدرتها على الإنجاب؟ ولكنه أقسم لها أكثر من مليون مرة إنه لا يحب الأطفال..

أتكون دخلت حياته أخرى؟

قد يخدع رجل حدس امرأته فترة ويصبح صعباً عليها أن تكشفه وهو يلعب دور المحب، ولكن هذا لا يستمر طويلاً.

- هتركني يا آنسة؟

هكذا قاطعها صوت "السايس" المزعج العالي وهو يخبط بيده على آخر السيارة، ففتحت الزجاج وردَّت متحفزة بصوت عالٍ:

- مش هتنيل أركن! هبات هنا! خلاص؟

في صمت. جلسا أمام بعضهما في مكان مفتوح على النيل ينظران في قائمة الطعام. وفي مشهد سيريالي يمر جانبهما مركبة نيلية ضخمة تكاد ترى عبر زجاجها الشفاف حفلاً خاصاً وفرقة عازفي وتريات بكل أنواعها يعزفون برقي واندماج، وتمرُّ جانبها فلوكة خشبية صغيرة تنيرها أضواء كهربائية ملونة، رغم أن نور الشمس ما زال قوياً وتصدر منها أغنية شعبية حديثة يتكرَّر فيها كثيراً مقطع "والنبي يامّا يامّا.. أموت عليها يامّا".

قالت لتقطع الصمت:

- أنا بكره الأغنية دي.. بتجيب لي انهيار عصبي.

لم يرفع عينيه من على القائمة وقال:

- يعني.. ليها ناسها..

ثم ركَّز في القائمة مرة أخرى، وظلَّت هي تتفقَّده وأنفاسها تتصاعد، ثم أخرجت من حقيبتها علبة سجائرها وأشعلت سيجارة في توتر.. وجلست تنظر للنيل، وراء يحيى كان هناك لوحة إعلانية لشركة اتصالات: لاعب الكرة الذي أحبته يوماً يحتضن كرة عليها إمضاؤه وعلامة الشركة ويبتسم.. وكأنه يبتسم لها.

قالت وكأنها تريد أن تشتِّت ذهنها عن توقعاتها المرعبة:

- فيه ريحة فل حلوة أوي..

- أنا عمري ما كنت أعرف إنك بتحبي الفل وريحته.

قالت وكأنها ترمي إلى شيء وشدَّت على نطق كل كلمة:

- لو فيه حاجة ما تعرفهاش عني تبقى غلطتنا إحنا الاتنين.. لأني ما حكيتش كل حاجة ولأنك ما سألتش عن كل حاجة..

نظر لها ثواني، ثم نظر للقائمة الطعام.

قبل هذا اللقاء بيوم، طلب منها أن تتفرَّغ من مواعيدها لو كان لديها مواعيد لأنه يريد أن يفاتحها في موضوع مهم، ولا يريد أن يتحدَّث معها عنه في البيت:

- طب خير؟ حاجة وحشة ولا حلوة؟

- بكرة نتكلم..

التهرُّب من الإجابة يُعتبر إجابة. تأجيل الإجابة يُعتبر إجابة. عرفت أنها مشكلة يحاول طرحها بأفضل شكل ممكن، وليس مجرد موضوع. لم تنم ليلتها وطلبت إجازة من عملها.

قالت بهدوء مصطنع وهي تسحب منه قائمة الطعام:

- يحيى.. سيب اللي ف إيدك ده.. أنتَ مستخبي فيه بقالك نص ساعة.. وأنا ما نمتش من إمبارح.. أكيد مش هنقعد نتكلم في الفل وريحة الفل، ونطلب وناكل ونحلّي ونشرب شاي.. وبعدين نتكلم في حاجة أنتَ عارف إنها راعباني.. أنا على أعصابي!

- طيب.. تمام.

ظلّ يحاول أن يجمع جُمله التي كان قد أعدها جيداً، ولكن كعادة الكلمات تهرب ونحن في أشدِّ الحاجة إليها.

سألته بصوت قوي وثقة من لا ينتظر إجابة:

- أبدأ أنا؟

أشار بيده بأن تتفضل:

- عايز نسيب بعض.. نتطلَّق..

فردَّ سريعاً كأنها أسعفته حين عرفت وحدها ما يريد، وليس عليه سوى التجميل الكلامي الآن:

- بس أنا الموضوع مش سهل عليَّ أبداً.. أنا..

قاطعته:

- فكرت كتير.. بقالك شهور بتفكر.. ما وأنت بتفكر كان باين عليك.

- مها.. إحنا كبار كفاية.. أول حاجة اهدي .. تاني حاجة الموضوع مش هيقف حالاً.. إحنا أهو بنتكلم..

- بنتكلم علشان نلاقي حلول؟ ولا بنتكلم علشان نخلي الموقف شكله شيك على قد ما نقدر؟

سكت.

- أوكيه.. علشان نخلي الموقف شيك..

- أنا بعزك فوق ما انتي فاهمة.. ونفسي تفضلي موجودة ف حياتي ونفضل صحاب.. مش عايز مشاكل وكره ونلوم في بعض ومين يتدخَّل ومين يعاتب..

قاطعته وهي تكتم انفعالها:

- طيب.. يا سيدي اعتبرنا صحاب من دلوقتي حالاً.. ماشي؟ طالما صحاب لازم يبقى فيه صراحة.. مش كده؟

- أكيد.

- ليا سؤال واحد بقى..

- قولي عشر أسئلة..

- هي مين يا يحيى؟

ارتخت عضلات كتفيه وبان على وجهه المفاجأة ممزوجة بإحراج وخجل. فقالت بنبرة تهكُّمية:

- سهل الأمور عليَّ شوية طيب لزوم الصداقة.. أنا عرفت لوحدي الموضوع أهو.. قول لي أنت بقى هي مين..

لم ينطق، فسحبت سيجارة أخرى من علبتها، ونظرت للنيل ثم له، وقالت ويداها وصوتها يرتعشان:

- امشي دلوقتي.. امشي.. يا.. يحيي!

- لأ طبعاً.. إزاي آسيبك كده؟

- امشي علشان أنا بحاول ما آتعصبش بكل الطرق.. لو سمحت.. بليز..

أخذ يجمع أشياءه وهي لا تنظر له.. ثم أخذت تتفقَّده وهو يرحل. وعندما كانت تدير عينيها لتنظر إلى النيل مرة أخرى، وقعتا على صورة الإعلان مرة أخرى.

عندما ترك مكانه ورحل، بدت لها صورته وهو يحتضن الكرة ويبتسم لها، أوضح.

فاضـل زكـي

"لأن الإيمان بوجود أيدٍ إلهية ستتدخَّل في وقت ما لتحلَّ المعضلة كلها، إيمان مطمئِن للقلوب.. لأن من الصعب التأقلم مع حقيقة إنك وحدك.. الإلحاد ترف ورفاهية لا يقوى عليها لا الضعفاء ولا الفقراء".

لو جمعت كل أعداد جريدة الأهرام الصادرة منذ عشرين عاماً لن تجد واحدة تخلو من عموده اليومي "بالقهوة نحيا". ولو جمعت أسماء كُتّاب أهم أفلام الثمانينيات في صفحة، سيحتلها اسمه.. ولو اهتممت أن تعرف مواقفه السياسية، فاسأل مواليد الستينيات، هم يتذكّرونها جيداً؛ فقد كانت ترجُّ أعمدة نظام عرف أنه سينهار يوماً.

رغم أنه من مواليد القاهرة وتحديداً الزمالك سنة ١٩٤٣ أي أنه لم يحضر من فترة عبد الناصر إلا خمس سنوات بعد سن العشرين والإدراك السياسي، إلا أنه اشتراكي ناصري من طراز مختلف.. مختلف لأنه مُدرك تماماً سقطات عبد الناصر الفادحة التي لا يتحدَّث كارهوه إلا عنها، ويجادل ويناقش حولها وفيها، ولكنه مؤمن إيماناً غير قابل للشك بأنه رجل لا يمكن الطعن في وطنيته ولا شرفه ولا ولائه للوطن.. الوطن فقط، وأن انتماءه لن يتكرر، ولن يأتي زعيم آخر يبدأ فترة رئاسته يمتلك بيتاً وسيارة، ويموت لا يمتلك إلا نفس البيت ونفس السيارة، كما تربطه بِه صلة عاطفية؛ فصديقه الأقرب فريد زميل مدرسة الجوزويت وكلية الحقوق ونادي الجزيرة، كان أكثر انغماساً في السياسة، واهتماماً بحال الفقراء أكثر من

الفقراء أنفسهم، ولم يبكِ في جنازة أمه.. وبكى بحرقة الأطفال يوم مات عبد الناصر.

قال له فاضل: "يا سيدي.. ده أنتَ ما عملتش كده لما أمك ماتت"

فردَّ وهو يبكي: "يا ريت كل أهلي ماتوا وهو لأ.. يا ريتني أنا أموت.. وهو لأ"

وكان فاضل يضحك كلما يذكّره بالموقف، وصديقه يبتسم في عدم إنكار منه لما حدث وإيمان بقوة سبب بكائه.. لو عرف صديقه أنه سيموت بعدها بخمس سنوات فقط، ويقابله لما حزن كل هذا الحزن.

لم يعرف فاضل معنى الصداقة كما عرفه في علاقته بفريد.

في كتابه الأول "هكذا صرت كاتباً" الذي أصدره بعد أن عمل في الصحافة لمدة عشر سنوات.. حكى:

"أن تصحو على مكالمة تليفونية في الرابعة فجراً وتعرف أن أقرب صديق لك مات فجأة، وتدفنه، وتراه جسداً ملفوفاً في قطعة من القماش الأبيض في قبر تحت الأرض، وتعود إلى بيته وتغلق على نفسك غرفته، وتحتضن كل شيء لمسه يوماً وتبكي، وأنت تردد بصوت غير مسموع وحرقة آلاف المرات هيستيريا سؤالاً خبرياً واحداً: "ليه يا رب؟" هذا موقف قد يجعل منك يوماً كاتباً جيداً".

مسيحي، لم يعلن إلحاده الذي وصل له في الأربعين من عمره.. ليس خوفاً من أي ردّ فعل أو أي موقف قد يؤخذ ضده.. ولكن احتراماً لمجتمع معروف عنه التحفُّظ في الأمور الدينية كلها، واحتراماً للكنيسة وللبابا الذي كان يشيد به في كل عيد يكون فيه من أوائل المدعوّين، ولكن من يقرأ رواياته ويتابع أفكاره يسهل عليه تخمين اتجاهه الفكري دينيًا.

في إحدى رواياته كتب حكمة في منتصف أول صفحة:

"انظر للعالم من حولك.. انظر للحروب والدمار والهلاك.. انظر لكمِ القتلى وكمِ الجرحى وكمِ المصابين.. انظر لكمِ المظلومين.. انظر كيف الحاكم يهلك المحكوم.. انظر للعراة والمجاعات والوباء.. وأنت تقول إنه مجرد ابتلاء.. أين العدالة الإلهية من ذلك؟ لماذا ترى في بطء العدالة اختباراً؟ لِمَ ترى في بطء العدالة حكمة أنت لا تعلمها؟ لأن الإيمان بوجود أيادٍ إلهية ستتدخل في وقت ما لتحلّ المعضلة كلها إيمان مطمئِنٌ للقلوب.. لأن من الصعب أن تدرك أنك وحدك.. الإلحاد ترف ورفاهية لا يقوى عليها لا الضعفاء ولا الفقراء".

تزوَّج من إنجليزية تعرَّف عليها في إحدى رحلاته الأوروبية.. ناسبته عقليتها. لم يحبَّها بالطبع كما أحبَّ "ربما".

ربما علاقة استمرت تسع سنوات تقريباً. أهدى لها أول رواية كتبها والتي كانت سيرة ذاتية.. هو يُقنع نفسه بأن قصته انتهت مع ربما دون سبب واضح. ولكنها انتهت لأنها توقفت عن حبه، في حين أنه كان لا يرى التوقف عن حبها اختيارًا.

في إحدى ليالي شتاء أكتوبر بعد ساعة وثلاثين دقيقة من صمت تخللته أصوات رشفات قهوة "جروبي" واحتراق ورق السجائر.. قالت له: "أشعر بأن شغفي يتلاشى، اشتياقي أصبح مصطنعاً، صمتنا أصبح غير مريح وممل بعد أن كان متعة في حد ذاته. أشعر بالوحدة وأنت جانبي. نشوة القبلة لم تعد قوية. لم أعد أنتظر أحضاننا الطويلة. لم أعد أريد أن أشاركك أي فيلم وأي كتاب وأي مناسبة. ببساطة، لا أريد أن أكون معك ولا أريد أن أخسرك. أنا فقط لم أعد أحبك لسبب -صدِّقني- غير موجود".

أحياناً، يبدأ الحب بعنف دون سبب واضح، ثم يموت بعنف دون سبب كافٍ.

يومها ظل صامتاً.. الرجل الذي مهنته الكلام عجز عن الكلام. كلامها كان منتهى الصدق والصراحة والوضوح. لا يجد أي سؤال أو استفسار لطرحه. استأذنها أن يغادر.. قبلها على جبينها وارتدى معطفه ومشى. صمته هنا كان حكمة.

قالت له بصوت عالٍ لأنه كان على بُعد خطوات: "هتفضل طول عمرك أقرب أصحابي".

لفَّ لها وانحنى نصف انحناءة كتعبير جسدي على موافقته، ثم استدار وأكمل طريقه للرحيل.

الصداقة عرض ضروري ومكرَّر في تلك اللحظات كنوع من المواساة العاطفية، مكافأة نهاية القصة.. ولكن ربما كانت تعنيها، وظلت حريصة أكثر منه على صداقة جعلته شاهدا على زواج تعيس انتهى بانفصال وليس طلاقاً حسب قوانين الكنيسة المصرية، وشاهداً على ميلاد ابنتها الوحيدة.

كان يمكن أن يعيش دون زواج، ولكن رغبته في الإنجاب جعلته يتزوج من ميشيل. أنجبا توأمين آدم وميراندا.

كان لآدم ميول سينمائية، ولميراندا ميول صحفية، بعد أن أنهيا دراستهما الثانوية، قرَّر فاضل أن يرسلهما لإنجلترا؛ ليدرسا هناك انتفاعاً بالجنسية، وبمستوى أرقى من التعليم.. سافرا ولم يعودا.

كان يذهب لهما فاضل وميشيل في الإجازات الصيفية وإجازات الأعياد.. وفي كل زيارة كان ينتقد مظهر ابنه وملابسه وطريقة نطقه غير السليمة للغة

العربية، ولون وتسريحة شعره، ويثني على احتفاظ ابنته بشكلها الطبيعي ولغتها وأسلوبها البسيط في اختيار ملابسها، ثم يثني على اجتهاد ابنه في عمله وما وصل إليه، وينتقد كسل ابنته وعدم تحقيقها لأي خطوة عملية تُذكر.

تزوجا هناك وأنجبا هناك وأصبحت العلاقات عبارة عن صور يرسلانها لهم ورسائل إلكترونية حتى يأتي ميعاد الزيارات.

علاقة فاضل بأبنائه علاقة غريبة؛ علاقة مثالية كمثل الذي اتَّبع قواعد في كتاب التربية. علاقة صحية ليس بها ذكريات كثيرة ولا صور كثيرة وقليل من الحوارات والجدالات الثقافية والفنية. علاقة شمعية ومنظمة نظاماً إنجليزياً ساعدت زوجته عليه. أثّر بالعوامل الوراثية، فكانوا موهوبين مثله، وليس بالاحتكاك، قد يكون ذلك بسبب انشغاله طول الوقت بكتاباته ومواعيد تسليم مقالاته، وبفكرة فيلم جديد، وقد تكون خسارة صديقه وكسرة قلبه جعلته أقل عاطفية، وقد يكون لأنه جاء من بيت كان يسوده هذا النوع من العلاقة العائلية.

قالت له ميشيل منذ عشر سنوات إن نتيجة التحاليل والأشعات الطبية قد أظهرت أن ورمها خبيث وفي مرحلة متطورة.. رد بعصبية إنه لا يعرف لماذا أظهرت تلك الأشعات الغبية هذا الورم الوهمي، وإنه يكره الطب والأطباء، وإنه لا يكترث لما قاله دكتور هاوٍ! ثم هدأ قليلاً واقترب منها بتفهُّم وابتسامة ومسك كتفيها لتنظر له: "أنتِ معندكيش حاجة.. مش بتثقي فيّ؟ أنا بقول لك إن مفيكيش حاجة!"

يا ليت الأمراض تشفى كذلك.

بعد أربع شهور توفيت ميشيل. أربع شهور توقف فيهم عن الكتابة والقراءة والمكالمات الهاتفية الطويلة ولقاءات المعارف السريعة. أربع شهور يجلس معها يمرّضها، ويقرأ لها، ويأخذ رأيها في مواضيع لم يكن يطرحها أبداً، ويصوّرها رغم رفضها، يلعب معها الشطرنج كما رفض مراراً لأنه مشغول، ثم قال في يوم الإثنين شهر مايو سنة ٢٠٠٣ إنه آسف ونادم لأنه لم يُشعرها يوماً كم يحبها.. وكم هي جميلة.

توفِّيت هذا اليوم.

أصبح وحيداً. زياراته للندن انقطعت، يكتئب عندما يذهب دونها. قرر ولداه أن يزوراه هما مرة في السنة، ولكن بعد أربعة أعوام تقريباً، لم يعودا يزورانه بالحجَّة الأبدية المعروفة: مشاغل الحياة. لم يغضب ولم يكترث. لا يقطع هدوء يومه سوى صوت "ريما" -الذي كان أصلاً عالياً، وأصبح أعلى مع التقدم في العمر- يأتي عبر سماعات التليفون؛ لأنه لا يسمع رنين هاتفه المحمول ولا يعترف بهذا الجهاز:

دون أن تقول آلو:

- أنت راجل ندل ومش محترم.. ده إيه ده؟ أقنعك تيجي إسكندرية إزاي؟ أبعت لك هيلكوبتر؟

- مش هعيش برا الزمالك أنا ولا أسيب بيتي..

- يا بااااي.. زيارة.. زيارة.. عاجباك العاصمة أوي؟ لازق لي فيها؟

- العاصمة هي نبض الحياة..

- آه دخلنا في شغل الكتّاب المهابيش ده.. طب البت جاية بكرة هي وخطيبها ما يفوتوا عليك..

- خليها هي تفوت لوحدها ومن غير الواد التافه خطيبها.. نشرب أنا وهي شاي.. إنما سفر لأ.

- توز فيك!

أغلقت الهاتف دون "مع السلامة".

تذكّر جنون ربما عندما تم دعوته في إحدى الحفلات، وجاءت معه؛ لأنها تريد أن تلتقي فناني السينما الذين يعرفهم.. ثم شعرت بالملل وشعر هو الآخر بنفس الملل، ووجدا حرجاً شديداً في أن يخرجا من تلك البوابة المفروشة بسجادة حمراء، فجعلت من كفها درجة سلم وقفز من السور ثم قفزت وراءه.

لم تأتِ ابنتها لزيارته.. إنها مشاغل الحياة.

لا يكتب.. لا يجد ما يكتب عنه رغم إلحاح الناشرين والمنتجين وولديه وريما. إنتاجه الفكري توقّف ولكنه لا يزال متابعاً جيداً لكل البرامج والأفلام والكتب.

يعيش على القليل مما جمعه من الفن، وإيراد أرض امتلكها أهله. يكفيه ويزيد.

مع السنّ زادت عصبيته جداً حتى مع محمود، الذي عرفه بعد موت ميشيل، وجعله يدير المنزل: ينظِّف ويطبخ ويحلق له شعره شهرياً ويُصلح أي شيء يحتاج للتصليح، وفي آخر كل يوم يصالح محمود، ويحلف له محمود برحمة كل الأموات ومعزة كل الأحياء بأنه لا يمكن أن يغضب منه مهما حدث. يومياً يجري هذا الحوار الأخير بينهما.

معروف في عمارته بأنه الكاتب الاشتراكي الملحد الذي تزوَّج من إنجليزية ليحصل على الجنسية ويهاجر، وأنه الآن لا يطلبه أحد ليعود للكتابة، فافتقر، وأنه من الوحدة أصيب بجنون الفلاسفة، فيزعِق هيستيرياً لمحمود الغلبان الذي يودُّ أن يهرب منه اليوم قبل الغد.

الناس في هذا المجمتع مبدعون بالفطرة.. التأليف هواية يولدون بها، قليلون يحترفونها.

سمع جرس الباب بعد التاسعة مساءً، محمود كان قد انصرف من ساعة.. كما أنه لديه مفتاحه الخاص، حتى لو نسي شيئاً، لن يُزعجه ويرنَّ الجرس.

قام بصعوبة واتَّكأ على عصا رجل في آواخر الستينات وكحَّ كُحَّة عجوز مريض بالربو. أضاء نور المحيط الخارجي والداخلي للباب ثم فتحه. وجد فتاة لا تتعدى السادسة عشرة تقول بحيوية:

- مساء الخير..

- مساء النور.. أفندم؟

- أنا فرح جارة حضرتك..

- أهلاً وسهلاً.. خير؟

- من على الباب كده؟ أنا يعني كنت عايزة أتكلم معاك في موضوع..

مستغرباً تساءل:

- موضوع إيه؟

- لأ هو محتاج كلام.

- مهم أوي يعني؟ ما يتأجِّلش لبكرة؟

- أنا مش عايزاه يتأجل.. بس لو ضروري يبقى ماشي وآخد ميعاد.

أخرجت نوتة صغيرة وقلم رصاص، فابتسم وهو يقول:

- ده وارد تنسي كمان..

- لا خالص.. هي أصلها جديدة وعايزة أستعملها..

- طيب.. بكرة الساعة ١١ الصبح.

- لأ لو ١١ يبقى يا جمعة يا سبت.. أنا عندي مدرسة..

- آه.. أنا آسف.. بكرة الساعة ٧.

- لأ عندي تمرين.. معلش معلش.. معلش والله..

- يوم الجمعة بعد الصلاة..

- هتفرق بعد الصلاة من قبل الصلاة إيه طيب؟ ما حضرتك مسيحي..

اندهش مبتسماً:

- أنتِ جريئة يا فرح، وبقيت قلقان من الموضوع اللي إنتي عايزاني فيه.. تعالي وقت ما يناسبك يوم الجمعة من ٩ لـ٣.

- ميرسي جداً.. تصبح على خير.

- De rien وأنتِ من أهله.

اقتربت.. ومدَّت يدها.. فحوَّل العصا من يده اليمنى إلى اليسرى.. وسلم عليها ثم مشت في ثقة.

أغلق باب الشقة وهو مبتسم ومستغرب، كيف دبَّت تلك الصغيرة في روحه فضولاً ودهشة فارقاه منذ سنوات؟

نسيها بعد دقائق، وظلّ سارحاً في ملكوت وحدته الخاص..

لماذا لم يتأخَّر الموت على أحبابه لحظة ويتأخَّر عليه هو؟ لماذا يعانده؟

فـرح الطيبي

"وفي الشوارع، كنت أسبُ وأشتم الناس، كنت أتعمَّد تناسي تشغيل "كاسيت" سيارتي، حتى أتمكَّن من أن أسمع الناس وأركز معهم، ومع أفعالهم، فألعن غباءهم وسذاجتهم وجهلهم. أما الأن، فأغني لهم مبسوطة وأشركهم معي: "ما شربتش من نيلها؟" فيردُّ عسكرى مرور: ده أنا لحست ترابها كمان".

تبلغ من العمر ستة عشر عاماً.

نشأت في بيت تقليدي هادئ معتدل الفكر والتديُّن، ولكن من البيوت التقليدية قد يخرج أشخاص مميزون رافضون للتقاليد عن دراية كاملة؛ لأنهم عرفوها وعاشوها فرفضوها عن تجربة. بلا أخ ولا أخت، جاءت وحيدة بعد ثماني سنوات من حرب والديها مع أمل مرتبك وأطباء يزيدون الأمل ارتباكاً، فكان من البديهي ألا يكون هناك ما هو أغلى منها ولا من هو أهم، الأولوية لها ولها وحدها في رسم أي خطة أو اتخاذ أي قرار.

عادة الآباء أنهم يتفقون ضمنياً أن يكون بينهما طرف أشد في التربية من طرف؛ طرف يقسو وطرف يدلل. طرف يلعب دور الحاد، وقد أخذته أمها، وطرف يخفف من حدته، وقد أخذه أبوها.

في طفولتها أخذها أبوها معه لكل الأماكن حتى المسجد كل جمعة، وكانت تؤدي مع المصلين الصلاة بحركات لا تفهم معناها، ثم تسبقهم في النهوض من السجدة؛ لتأخذهم صورة بعينيها؛ لتصفها له بعد الصلاة، ثم تسجد سريعاً مرة أخرى خائفة أن يلحظها أحد.

تمارس السباحة منذ الرابعة من عمرها، ثم أتيا لها بمدرس بيانو، أحبَّت السباحة، وكانت تكره البيانو، وتكره المدرِّس، حتى أتمَّت الثامنة، وبدأت تحبه وتعلمته.

لا تقرأ، ولكنها تشتري كتباً وتمتلكها، ثم تمَل في أول صفحة، لا تكتب، ولكنها تحاول ثم تملّ بمجرد أن تبدأ، كما أنها أصاب لغتها العربية ليست في مستوى لغتها الإنجليزية، فقد أصابها الضعف الذي أصاب أبناء هذا الجيل، وخصوصاً مواليد منتصف التسعينيات، ولكنها تريد تقويتها فتفشل، كل ثقافتها تستمدها من تلفزيون تشغّله بمجرد أن تستيقظ أو تعود للبيت، ولا تطفئه إلا قبيل النوم بثوانٍ أو تنام عليه، تقريباً ليس هناك فيلم عربي أو أجنبي لا تعرفه، ولا مخرج لم تسمع عنه، ولا برنامج لا تتابعه، أحياناً، تذهب للسينما وحدها لتشاهد ثلاثة أفلام مرة واحدة.

بدرَّاجة، تتنقل بحرية بعد أن استمرَّت محاولات إقناع أهلها بموضوع قيادة درَّاجة كوسيلة للتنقل استمرَّت سنة، ففي مجتمع كمجتمعنا، ثقافة ركوب الدراجات للفتاة يعتبر انتحاراً اختيارياً على يد متحرِّش، ولكن لأن والدها عوَّدها أن تجادل وتناقش وتحارب لغوياً وبشكل منطقي ومهذَّب في أي موضوع، وأن يأخذ أي طلب لها على محمل الجد دائماً ويدرسه ويفكر فيه، اقتنع ووافق على أن يكون ذلك في محيط الزمالك فقط وليس بعد التاسعة مساءً.

الأهل هم المصدر الأساسي والأول للثقة، مع الوقت قد لا يعدُّ الأساسي، ولكنه يظل الأول.

حاول أصدقاؤها اقناع أهاليهم بنفس الشيء ولكنهم فشلوا، كل أصدقاء فرح يريدون أن يكونوا هي، رغم أنها لا تُعتبر جميلة؛ جسدها جسد بطلة

سباحة، وزنها أقل من طولها المتوسط. أرجل رفيعة ومشدودة عضلياً جداً وكتفان عريضان. شعرها لونه باهت من الآثار الكيميائية لمادة "كلور" حمامات السباحة. ملابسها إما رياضية، وإما تناسقها عملي غريب. زيارتها للكوافير في الأفراح فقط. وأسلوبها خالٍ من الأنوثة المعتادة. ولكنها ذكاؤها ميزّها. لا يعيبها سوى أنها صريحة، ولكن هناك خط بين الصراحة والوقاحة معروف، ولكنه يغيب عنها تماماً وسط عصبية أو غيرة أو أنانية من ينشأون وحدهم.

أحبَّت مرة ولداً في نفس عمرها، تركها دون أسباب واضحة في استراحة بين شوطي كرة قدم في مدرستهما، بعدها بيوم أعيتها الإنفلونزا. فتوهَّمت أن مرضها اكتئاب حاد، اكتئاب انتهى بانتهاء الإنفلونزا. بعد أسبوع، كان حباً مراهقاً.

منذ أن عرفت صدفة في وسط حديث عام لأمها أن هذا الجار العجوز الوحيد الذي يسكن في الدور الخامس هو فاضل زكي، كاتب أغلب أفلامها العربية المفضَّلة والرواية الوحيدة التى أكملتها لنصفها، وهي تراودها فكرة واحدة ليل نهار: لماذا لا يعلِّمها هو الكتابة؟ لماذا لا يعطي لها كُتباً هو واثق بأنها لن تتركها قبل أن تنهيها! طرحت على والدها الفكرة، فقال لها إنه رجل عصبي وعجوز وغريب، ولن يرحِّب بها أبداً.

حاولت دون جدوى أن تجبر نفسها على النوم في إحدى ليالي هذا الأرق السخيف، ولكن لم تستطِع، مدَّت ذراعها تحت السرير لتأتي بجهاز "اللابتوب" كانت قد تركته منذ ساعات، كتبت "فاضل زكي" على موقع "جوجل" وقرأت ما كتبه "ويكيبيديا" عنه، ثم اطَّلعت على تعليقاته القليلة مؤخراً في بعض الصحف على الوضع العام للفن والبلد كلها.

عائدة من الخارج، لم تكمل للدور السادس، وقفت أمام بابه، وضعت أذنها عليه لتسمع إن كان يزعق أو أي شيء مما حكوا عنه، لم تسمع سوى صوت فيروز يأتي صافياً كعادته:

"صباح ومسا، شي ما بنتسى، تركت الحب، أخدت القسى"

فكَّرت أكثر، قررت، عدت من واحد حتى ثلاث، ضربت جرس باب الأستاذ فاضل الكاتب العجوز العصبي الغريب كما قال والدها، انتظرت حوالي دقيقة فكرت فيها أن تهرب عشرات المرات.

فتح لها بنفسه، كانت في قمة الجرأة، جرأة من يخفي رعبه، كان في قمة الأدب، أدب من يصبر ليفهم، أعطى لها ميعاداً لمقابلته كما طلبت هي.

في يوم الجمعة المتفق عليه، نزلت بمفكرتها الخاصة في تمام الحادية عشرة صباحاً.

فتح لها محمود خادم الأستاذ فاضل:

- أنا كان عندي ميعاد مع....

- أنا عارف.. اتفضلي حضرتك..

أدخلها ناحية الصالون، فقالت وهي تشير لغرفة المعيشة:

- لأ أنا هقعد هناك.. ينفع؟

- زي ما تحبي حضرتك..

- على إيه حضرتك دي.. أنتَ محمود صح؟

ابتهج محمود لأنها عرفته ومن نفسها:

- أيوه.. أنا.

- طيب.. وأنا فرح.. يعني لو ما انطردتش النهارده.. تبقى تقول لي يا فرح على طول!

- تتطردي ليه؟ ده فاضل باشا مافيش منه اتنين..

- هنشوف..

- تشربي إيه؟

- لا.. شوية كده..

بعد ربع ساعة، دخل عليها في هيئة مختلفة عن الليلة السابقة.

الليلة السابقة، كان يرتدي "روب" فوق بيجامة وشبشب تحته شراب، ويتكئ على عصا، اليوم هو في هيئة رجل كلاسيكي أنيق، ارتدى قميصاً أبيض فوقه بلوفر كحلي وبنطلون قطيفة كحلي وحذاء "سبادريه" كحلي به خطان لونهما أبيض، وسبقته رائحة عطر رجولي فرنسي قديم، وليس في يده عصا، فرحت لأنه يبدو مهتماً.

قال:

- أهلاً وسهلاً..

قامت من مكانها فأجلسها حينما اقترب منها وسلم عليها:

- الأول بقى إنتي بنت مين في العمارة؟

- رفعت الطيبي.. الدور اللي فوقك.

- أهلاً وسهلاً..

- أهلاً بيك.

جلست صامتة تنظر له.. وهو يعدل ساعته وياقة قميصه، ويبتسم لها ليريحها حتى تتكلم:

- الموضوع.. إني بحب أكتب جداً بس أنا مش بعرف أكتب كويس.. وعايزاك تعلمني، أنا قريت لحضرتك نُصّ رواية واتفرجت على كل الأفلام..

ضحك بهدوء وقال:

- نُصّ رواية مرة واحدة؟ ده أنا راجل محظوظ خالص!

- أنا اللي أصلاً مش بعرف أقرا.. الكلام صعب عليا وكمان بسرح..

- طيب.. بصي الكتابة زي الدم الخفيف كده.. ماحدش بيعلّمها لحد، إنما ممكن أساعدك.. أوجهك.. تاخدي رأيي كقارئ.. أنا معنديش مشكلة في ده.. معاكي حاجة كاتباها؟

- لأ.. عمري ما كتبت.

- أنتِ مش قلتي مش بعرف أكتب كويس؟ عرفتي منين أومال؟

- من البداية.. جرّبت مرتين كده أو يمكن أكتر.. والبداية وحشة وهبلة.

- كتير البدايات بتبقى أكتر من وحشة كمان.. الفكرة في الفكرة.. والعبرة بنهاية الكلام.. أنت بتتدلعي أو يمكن مش موهوبة كفاية.. أنا مش عارف.

سكتت في شعور أن الاتفاق لن يكتمل.. فاستكمل كلامه:

- النهارده.. نعتبر عندك واجب.. تقعدي تكتبي حاجة أقدر أقراها وأحكم، ومش هديكي ميعاد.. وقت ما تخلصي تعالي تاني.. ونصيحة اكتبي عن حاجة تعني لك.. تبقي فاهمة إنتي بتتكلمي عن إيه.. حاجة عشتيها أنتي أو عشتيها من خلال غيرك.. أثرت فيكي...

لمعت عيناها..

- بجد موافق؟

- بشكل مبدئي..

- يبقى شكراً بشكل مبدئي..

- العفو..

أوصلها حتى الباب وربَّت على كتفها:

- شدِّي حيلك..

- إن شاء الله.

- وعندي نصيحة تانية كمان.. ما تتكسفيش من إنك تحكي.. وما تستهونيش بأي حكاية.. الكاتب بيكتب حلو لما يبطل يخاف من كلماته..

ابتسمت وهزّت رأسها موافقة..

جاءته يوم الجمعة، أعطته ورقتين بيد خائفة.

- أقرا قدامك؟ ولا مش هتبقي مرتاحة؟

- مش هابقى مرتاحة..

- تحبي تيجي بكرة مثلاً؟

- أيوه.

اتَّجهت نحو الباب مسرعة في خجل.

ارتدى نظارته ذات العدسة المستديرة صغيرة الحجم، وفتح الورقتين:

أُكتب لك، بعد أن مرّ على انفصالنا سنة، كبرت فيها مليون سنة، نضجت وأدركت أكثر قيمة ما لم أعطِه قيمته المفروضة من قبل.

لم أكن يوماً غبية ولكني قدر ما أستطعت. سكتّ وأسكتّ أصوات أفكارى العالية الخائفة، وكنت شرسة عنيدة أمام محاولات الجميع لأتخذ القرار: قرار الانفصال.

بعد مرور ثلاث سنوات، قلّ فيهم الحب بعد انتهاء الثانية. كانت السنة الرابعة هي الأبشع: قدرتك على التركيز تزيد لتصبح أقوى وخاصة في العمل، أعلم أن العمل هو الأهم في حياة الرجال، ولكنه أصبح مهماً بالنسبة لك لدرجة مَرضَية، وكأنك تختبئ فيه مني، ضحكتك، كأول مرة وقعت فيها عيني عليها.. ثم عليك. لامعة وصافية. أما ضحكتي انطفأت وأصبحت غالباً مصطنعة لك ولغيرك. ملابسك، ظلت أنيقة وبسيطة، معطرة بعطر أعرفه وأحبه. أما أنا -فطالما لست معك- فشعري مربوط ومرفوع بشكل عشوائي مموّج غير مفهوم، وأبدو مزرية بملابس مهلكة لا يميزها إلا أنها نظيفة بلا بقع، فلم أصل لمرحلة القذارة بعد. نظراتك، ثابتة ثاقبة تخترقني بهدوء كعادتهم، أما نظراتي، فكانت تائهة زائغة وكأنها تبحث عن أسباب مختفية.

أصبحت تكره كيف أضحك وسط الكلام، فلا تفهم مني شيئاً ، أصبح ذلك موتراً بالنسبة لك بعد أن كان براءة وتلقائية نادر وجودهما في هذا الزمن. وتكره كيف أتلاعب بشعري بين الحين والأخر، فتدلّ تلك الحركة (كما

قرأت في كتاب من كتبك مؤخراً) على اهتزار ما، أو قلق لا داعي له. بعد أن كانت بالنسبة لك أنوثة ودلالاً، تكره كيف أضع الساعة في يدي اليسرى وليس اليمنى كالجميع، أصبح ذلك غريباً عجيباً بعد أن كان فريداً مميزاً يجذبك، تكره كيف أن وزني يزيد يوماً بعد يوم، مع أنه على الميزان لم يزد يوماً جراماً واحداً، كرهت لون شعري الفاتح فهو يجعل وجهي شاحباً باهتاً كالمرضى، وكرهت لونه غامقاً، فاللون الغامق شعبي وقديم، بعد أن كانت كل الألوان وكل الأشياء تناسبني، وحتى إن كانت لا تناسبني.فالمهم هو "أنا"، كرهت الدقة في ملابسي، وذلك أول ما لاحظته وبسهولة؛ لأن تلك الدقة، أقسم أنك كدت تكتب عنها أشعاراً، ثم أصبحت قلة ثقة في النفس، وأن الإنسان ليس بملابسه ولا بمظهره! هل قرأت ذلك في كتاب أيضا؟

أكتب لك، بعد مرور سنة، مرّ فيها أغلب الوقت وأنا أتفقّد وجهي أمام المرآة، أتفقّد تقاسيمه وملامحه.. هل كبرت أم تغيّرت؟ تلك التجاعيد.. يراها الجميع أم أراها أنا وحدي؟ مرت سنة، أتصرف فيها كمريض خطر، يمر كلبي من جانبي، فأرفعه من ذيله بعنف، أجعل وجهه ثابتاً مباشراً لوجهي، ثم أفتعل وشوشاً مخيفة ثم أصرخ باسمه عالياً، حتى أسمعه يبكي! فأتركه، فليس له ذنب إلا أنه إحدى هداياك التي جمعتها في كيس أسود كبير وتركتها في الشارع ليلاً بعيداً عن منزلي وأحرقتها! وركبت السيارة وصرت أضحك كالمجانين المنتصرين، تخيّل شخصاً مريضاً خطراً مجنوناً منتصراً يضحك بصوت عالٍ وحده في سيارة!

في تلك السنة، عاملت أمي أسوأ معاملة، لم أراعِ أنه لا يوجد في البيت إلا أنا وهي، قاطعتها أسابيع لأتفه الأسباب، عاندتها في كل شيء، كأنني أعاقبها على ما فعلت رغم أنها نبّهتني منك، ومن الفشل، ومن تمثيل الرضا، ومن

الصبر على من لا يستحق، ومن التعلّق بأمل زائف، ومن طول الانتظار، ومن ضياع العمر وضياع الفرص، ولكني كنت لا أسمع إلا نفسي!

أما أصدقائي. فكنت أفتعل معهم الشجار دون أي مبرر واضح، وإن صالحوني اعتبرت ذلك عطفاً لا أقبله ولا أحتاجه، وإن ابتعدوا عني اعتبرتهم لا يعرفون أبسط قواعد الصداقة "الصديق في وقت الشدة". حتى قاطعتهم وافتقدتهم، ومن يومين اتصلت بأقربهم لي، فكادت تبكي وتطير من الفرحة عندما سمعت أني أريد مقابلتهم، في بيتي كعادتنا، فتعلّمت قاعدة، سأظل أتبعها حتى آخر يوم في حياتي، وهي أن "دور الصديق لا يمكن أن يلعبه حبيب".

وفي الشوارع، كنت أسبُّ وأشتم الناس، كنت أتعمَّد تناسي تشغيل "كاسيت" سيارتي، حتى أتمكن من أن أسمع الناس وأركز معهم، ومع أفعالهم، فألعن غباءهم وسذاجتهم وجهلهم، أما الأن فأغني لهم مبسوطة وأشركهم معي: "ما شربتش من نيلها؟"، فردَّ عسكري مرور: ده أنا لحست ترابها كمان"!

قررت أن أكتب لك، بعد أن استعدت قدرتي على الكتابة، لأعرفك كم أنا فخورة بنفسي، فعندما اختفيت وكنت لا ترد على مكالماتي ولا رسائلي، لم يكن هناك أسهل من الوصول إليك، ولكني فهمت وصمتّ دون أن أذرف دمعة واحدة.. هل تصدّق؟! ولا دمعة!، يمكن لأن البكاء له علاقة معروفة بالصدمة، أما أنا فكنت متوقعة ومستعدة؟ المهم، أني فخورة بنفسي الآن.

أكتب لك لأصف لك "القليل جداً" من احتقارى لك، لرجل تركني بعد سنين، لم يفت فيهم يومان إلا وتقابلنا أو تكلمنا، دون أن يقف أمامي ويشرح موقفه بثبات من يحترم نفسه وأفعاله وقراراته.

كنت أحكي منذ البداية، لأصل لهذا الجزء، لهذه النقطة "وصف الاحتقار" وليس "الكره".. فقد قالوا إن الكره درجة عنيفة من درجات الحب، أنا حتى لا أكرهك.

انتهيت ولن أرسل الخطاب، سأقوم وأمزِّقه لقطع صغيرة كثيرة. وألقيها عالياً هنا أمامي. حتى أراها طائرة حرة في السماء، ثم تهبط متأرجحة قطعة تلو الأخرى في البحر، لتغطس وتلتعش وتذوب في الماء، وتختفي نهائياً"..

أعجبه جداً حتى اندهش من عدم ثقة تلك الفتاة في موهبة واضح وجود أساسها، لم ينتظر للغد، أرسل محمود ليناديها، فنزلت معه.

- فين الهبل ده بقى؟ ده إنتي كتبتي بروح أكبر وأعمق من سنك وخضّيتيني!

- بس أنا تعبت جداً، وكنت بتأكد من كل كلمة أونلاين، وفكّرت كتير واتأخرت وكنت بطيئة.

- معلش.. علشان لسه ما اتعودتيش.. بالقراية والممارسة هتبقي هايلة.. خبر سعيد.. إفراج إنتي مش محتاجة مني أي حاجة.

بان على وجهها الإحباط والحزن.. كانت تريد أن تنظّم معه مواعيد ثابتة؛ ليجعلها مثله، يجعلها أكثر ثقافة، يجعلها أكثر نضجاً، كان تريد أن تحتك به بشكل منتظم..

- يعني إيه؟ مش هتعلّمني؟! أنا عايزة أبقى مثقفة!"

- اقري..

قالت بطريقة طفولية:

- عايزاك أنتَ اللي تعلمني..

لم يدخل حياته منذ سنين أي شخص جديد، ومنذ أن اعتزل الحياة الفكرية ومجالس الثقافة وهو لا يستخدم كل ما يعرف إلا في أضيق الحدود، رأى في عرضها شيئاً جديداً.. متعة أو تسلية.. ربما مغامرة.. كما أن ملامح وجهها المحبط أثّرت فيه.

- طيب إنتي كل يوم جمعة وسبت تيجي الساعة ١١ الصبح ساعتين.. ونشوف.

- أنتَ أحسن من اللي بيقولوه عليك بكتير..

- وبيقولوا إيه يا فرح؟

- إنك يعني عصبي و......

- وكافر ومجنون وخرَّفت وراحت عليَّ والدنيا باعتني؟

ابتسمت خجلاً..

ابتسم لها واصطحبها إلى الباب دون أن يعلِّق.

لمدة شهرين أي ستة عشر يوماً..

جاءت فيهم فرح في ميعاد حصتها والتي مع الوقت أصبحت تطول عن ساعتين، كان يختار لها قصصاً وروايات ومسرحيات لا تتعدى المائة صفحة؛ حتى لا تمل وحتى تشعر بقدرتها على إنهاء كتاب، ثم يناقشها فيه ويسمع رأيها في الشخصيات وفي دوافعهم الأخلاقية ومحركاتهم الدينية وأهدافهم العاطفية وأحياناً فكرهم السياسي، كانت تعاند بفكر غير ناضج وخبرة ناقصة تارة وتتسع عيناها وهي تسمعه بتركيز صامتة تارة أخرى.

في يوم قبل أن ينام وهما يقلّبان في ألبومات صوره القديمة، في حجرة واسعة نصفها مكتبة بها مئات الكتب، على سريره، بعد أن ألحّت هي عليه:

- لو رجع بيك الزمن.. كنت تعمل إيه؟

- كنت ما خلّيتش ربما تسيبني بسهولة.

- فيه حد يقدر يخلّي حد ما يسيبوش وهو عايز يسيبه..

- كنت حاولت على الأقل..

- كنت فاكرة إنك هتقول حاجة تانية..

- إيه؟

- إنك تقوي علاقتك بولادك..

- لا.. أعتقد هي كده لا بأس بها.

أشارت إلى المكتبة:

- أنت قريت الكتب دي كلها؟

- قريت الكتب دي كلها.

قالت بمرح ممتزج بخبث وكأنها تختبره:

- طب أنا بقى عايزاهم..

- بكرة لما يبقى عندك مكتبة بتاعتك، تفهمي غلاوتهم.

تناقشا في الأخلاق والدين والحب والسياسة والصراعات الأبدية بين العدل والظلم، والخير والشر بحكايات مكتوبة، ثم أصبحا يحكيان حكاياتهما

الشخصية، أحبها جداً حتى إنه يغضب إذا تأخّرت، كما تغضب هي عندما يجعلها تنتظره كثيراً؛ لأنه يستعد، ثم أصبحت تنزل له بـ"البيجاما"، ويستقبلها هو دون استعداد.

- إيه أكتر مشهد شفيته وعمرك ما تقدري تنسيه؟

- آه.. ليّا ابن عم كان أحسن واحد في العيلة، هو أكبر مني بكتير.. هو ٣٠ سنة مثلا.. كلنا كنا بنحبه.. وفضل مش بيظهر كتير، ومرة كنا بنزور عمي فجأة، كان موجود سمعنا زعيق جوا وخرج بسرعة متعصّب وما سلمش علينا.. ولا عليّا.. مع إننا كنا صحاب أوي.. وبقى رفيع كأنه هيكل عظمي..

- مدمن؟

- الظاهر كده.. محدش في العيلة بيتكلم في الموضوع ده خالص..

- إيه اللي أثر فيكي؟

- إني بحبه وإنه هيموت قريب.. أنا عمر ما مات حد يهمني يعني.. بس أقدر أتخيل الحزن.

لم تعد فرح تخرج مع أصدقائها، كانت تشاهد الأفلام معه، تقرأ معه، تلعب معه الشطرنج كما اشتاق أن يلعب مع زوجته، حتى إجازة الصيف كانت تودُّ أن تقضيها معه، ولكنها إجازة والديها السنوية: أسبوعي المصيف المعروفين.

استأذنت منه أن تتغيب، فنظر لها نظرة حنونة، وفيها تعلق وقال:

- ١٠ أيام مرة واحدة؟

اقتربت منه وقالت بتأثر:

الأيام بتجري هوا.. هكلمك كل يوم في التليفون.. بس خلي موبايلك جنبك أبوس إيدك.. وبرضه هكلمك على البيت لو ما رديتش.. أوعدك.

فلوّح لها أن تأتي وحضنها بقوة وقبّلها، فقالت له:

هو أنا مسافرة الصين يعني؟

ابتسم.

اتّصلت به في اليوم الأول وردّ سريعاً وتحدّثا سوياً عن كتاب اشترته في الطريق لجبران خليل جبران ولم تفهم منه كلمة، ظلا يضحكان حتى أقنعته أن يزور "ربما" في الإسكندرية وتقابله هناك، وعدها أنه سيحاول، ثم لم يردّ على مكالماتها لمدة يومين.

تسلل إلى قلبها خوف وقلق لم تعرفه من قبل، اتصلت بمحمود، جاء صوته مكتوماً:

- الأستاذ تعيشي إنتي إمبارح.

أنهت المكالمة، ووضعت هاتفها جانبها دون أن تنظر جانبها، وظلت صامتة صمت الأموات لدقائق، ثم بدأ وجهها ينكمش وحاجبها يتعقدان، وبدأت تتجمع الدموع في عينيها، ثم وضعت وجهها بين يديها، وأجهشت في بكاء صوته عالٍ وكأنه صراخ.

بحساسية مراهقة، بلغت أقسى درجات الحزن والإعياء النفسي والجسدي.

الآن لم تعد بحاجة لتخيُّل معنى موت عزيز كما حكت له مرة، لقد عرفته، لقد علّمها آخر درس بمنتهى القسوة.

اضطرَّ والداها ألا يكملا إجازتهما السنوية ما دامت هي لا تريد أن تخرج حتى من غرفتها، عادا بعد أن انتهت كل إجراءات ما بعد الوفاة الرسمية الثقيلة السخيفة، مرّت على الشقة، وجدت محيطها الخارجي مظلماً وكئيباً لا يضيئه النور الهادئ كالمعتاد.

بعد مرور يومين، جاءت ميراندا ابنة فاضل بيت فرح وطلبت أن تقابلها.

أبلغتها أن والدها قبل أن يُتوفى بحوالي أسبوعين أو ثلاث، أرسل لها بريداً إلكترونياً، حكى فيه عنها، وأوصى أن لو حدث وتوفي قريباً أن تأخذ هي مكتبته الخشبية بكل ما تحتويه من كتب.

أرجعت ظهرها على الكرسي، وسرحت حتى اختلطت دموعها الحزينة بابتسامة حبّ لن يُنسى، وقالت:

- أقدر أدخل آخدها إمتى؟

محمود الأسيوطي

منذ بداية الخليقة وولادة فكرة النضال، يموت المناضلون ولا يموت الزعماء إلا نادراً جداً. يموتون وهم يعتقدون أنهم يدافعون عن هدف وقضية ولكنهم في الحقيقة يموتون غالباً من أجل رمز أوهمهم وهم لا يشعرون. رمز استغلّ طاقاتهم الشابة لخدمة قناعاته هو، وهم لا يحسون. لعب بضعفهم واحتياجهم وحرّكهم بخيوط كعرائس على مسرح الموت. وهم يظنون أنهم مخيَّرون.

جزَّ على أسنانه، فبرزت عضلات الفكين بقوة. اتسعت حدقتا عينيه. انتفخت عروقه غيظاً فبان احمرار وجهه رغم سماره. قفز من مكانه قفزة أسد رأى عن بُعد فريسته بعد أعوام من الجوع والانتظار.

اتجه ناحيته. أمسك أخاه الأصغر من عنق قميصه وألصقه بعنف بأقرب حائط في حركة أخذت ثواني، أصبح هناك وجهان متلاصقان، يشبهان بعضهما بشدة. الفرق هو لحية أحمد الطويلة الخفيفة المتناثرة. الآن، لا يفصل بين أنفيهما أي مسافة. العين في العين. الأنفاس تتصاعد في صمت مخيف وسط ترقب أختهما وأمهما.

نطق محمود وهو يضغط على كلامه تاركاً مدة بين كل كلمة وكلمة؛ ليبدو كل حرف وحده تحذيراً:

"المنظر اللي أنا كنت هشوفه ده لو اتكرر.. أو عرفت إنه اتكرر.. أقسم بالله.. ورحمة أبويا.. ما يكفيني فيك تمانين عيار.. وأنت فاهم وعارف.. إني أقدر أعملها".

والدهما كان يعمل في أحد مصانع الألومنيوم بنجع حمادي؛ مسقط رأسهم. ذلك قبل أن يأتيهم مخبر في ليلة شتوية كئيبة من شهر نوفمبر. يبلغهم بمكان وجود جثته لاستلامها.

كان محمود حينها في الحادية عشرة، وأحمد كان طفلاً في الخامسة، ووردة كانت قد أتمّت سنة منذ أيام معدودة.

صرخت أمهم على باب البيت وهي تتلقى الخبر. في وسط ولولتها العالية تكاد تلتقط من وسطها تساؤلاً يرجُّ المكان من شدة الصراخ: إزاي؟

في طريق رجوعه ليلاً بعد يوم عمل شاق، هجم على ميكروباص عودته المعتاد ثلاث رجال مُسلحين. كانت قضية ثأر لم يكن هو طرفاً فيها، ولكن حين يخرج الرصاص، يصيب من أمامه عشوائيًا فهو لا يعرف قضايا ولا يعنيه الأطراف. اخترقت رصاصة الزجاج لتستقرَّ في رأس الأب. تمركزت فيها وسكنتها.

مات.. واضطر محمود أن يكون المسؤول عن أسرته كلها.

كان شديد التعلُّق بأبيه؛ يقلِّده في مشيته، في حركاته، في طريقة كلامه، في ضحكته وفي كل شيء، ولأن والده كان مولعاً بالغناء والطرب والموسيقى حتى إنه سمَّى ابنته على اسم وردة الجزائرية، ألحق محمود بإحدى مراكز الأنشطة الفنية ليتعلم آلة موسيقية يختارها، وتعلَّم "الأوكورديون" وكان يكتسح مسابقات العزف على مستوى محافظات الصعيد. كما كان متفوقاً دراسياً، وله مهارة خاصة تختلف عن باقي أصحابه حين يلعبون الكرة سوياً. كان يحبُّ الأفلام ويحفظها ويقف في تجمعات للأطفال ليقلد لهم إسماعيل ياسين أو يمثل مشهداً من فيلم أحبه.. كان سريع التعلم. لا يفشل سوى في الشكوى والبوح حين يتألم. كان ولا يزال يكتم مشاعره دائماً.. حتى إنه لم

يمتلك يوماً القدرة الكلامية الكافية لإخبار أي فتاة ممن أحبهن يوماً عن إحساسه.

يختلط على الكثير تعريف نشاطات المسلمين اللذين اختاروا أن يعملوا تحت اسم الدين فى جماعات. يخلطون مثلًا بين "جماعة التكفير والهجرة" و"الجماعة الإسلامية" وجماعة "الإخوان المسلمين"...

"جماعة الإخوان المسلمين" جزء معترف به من الدولة حتى لو كانت "محظورة" تعمل فى السياسة وتنشئ أحزاباً، وهدفها إخضاع الدولة لاتباع نظام إسلامي وتطبيق الشريعة.

"جماعة التكفير و الهجرة" قررت أن الكل كافر ما دام يخضع لحاكم كافر لا يطبِّق شرع الله و أحكامه، وأن العلماء كافرون: لأنهم لا يكفِّرون الحاكم، وقرروا الانعزال واعتزال المجتمع.

"الجماعة الإسلامية" قد كفَّرت الكل أيضًا، ولكنها نوت الجهاد فى سبيل تطبيق شرع الله.

انضمَّ أحمد إلى "الجماعة الإسلامية" في عامه الجامعي الثاني.

جاء إلى القاهرة ليدرس في جامعتها؛ لأن محمود أصرَّ أن يدرس الطبَّ في العاصمة، في أكبر جامعة في مصر. وقد كان عند أحمد لعثمة واضطراب في الكلام زاد منه خجل ابن الجنوب الغريب التائه وسط أبناء المدينة وقلوبهم القاسية. اصطاده أصحاب اللحى من متبنِّي هذا الفكر الإرهابي الذي يقدمونه باسم "ابتغاء رضا الله".. شكَّل مادة خصبة لهم. تمت بنجاح مبهر عملية غسيل المخ من أفكار طيبة وعادية لا تذهب لأبعد من نجاح جامعي وفرصة عمل وتكوين أسرة فيما بعد، وجعل أهله فخورين به، وتمت بنجاح

أكثر إبهاراً رغم إنها الأصعب عملية غسيل القلب من مشاعر صادقة تجاه أهله وأصدقائه ومعارفه القدامى.. تجاه كل الناس وكل المجتمع.

الكل كافر إلا هم، وإلا هو لو أصبح منهم هم.

كان يزور أهله أسبوعياً ثم أصبح يزورهم شهرياً ثم أصبح ينقطع لشهور ويرسل بصديق ليطمئنهم عليه، حتى لم يغْنِه أنهم بلا رجل سوى بعض الأقارب الذين لا يسألون عنهم بصفة دورية مستمرة.

محمود لم يكن موجوداً في تلك الفترة.

سافر لمدة خمس سنوات ليعمل في الكويت سائقاً صباحاً وكهربائياً ليلاً. هو لم يكمل تعليمه المدرسي حتى.

قالت أمه في جلبابها الأسود الباكي:

- حزنان علشان خرجت من المدرسة يا محمود؟

- أنا زعلان علشان إنتي فاكراني زعلان.. وعلشان إنتي زعلانة.

كان تعرف بحواسِ الأم أنه "حزنان". احتضنته وبكت بحرقة. لم ينسَ أبداً صوت نحيبها.. دخل في أذنيه ولم يخرج منهما.

كانت وردة تكتب له خطابات خاصة بها وخطابات تمليها عليها أمها. كان لا يُفرحه سوى خط وردة المضبوط رغم صغر سنها، ويديها التي لا ترتبك ولا تضيع السطر وهي تسرد كل تفاصيل يومها، وكم تشتاق لأحمد وله، وكم تريد أن يعودا ليعيشوا معاً كلهم كما كانوا، وأنها لا يهمها أن يتعلّم أحمد أو أن يعيشوا فقراء بلا ماله.. إنها تريد أحمد ولو جاهل وتريده ولو فقير، تريد رجُلها بجوارها. وكانت أحياناً لا تجد ما تكتبه في الخطاب؛ لأن أيام فتاة تعيش في الصعيد لن تكون دائماً فيها ما يُحكى، فتنقل له درس قراءة

أحبته، وكانت تذهب كل فترة لاستديو تصوير متواضع هي وأمها، لتريه كم كبرت وكم اقتربت من طول أمها.

مرّت ثلاث سنوات، قرأ في خطابات أمه قلقها المتصاعد على أحمد الذي يختفي كثيراً والذي تغيَّر جداً. هو نفسه قلق عليه؛ فهو لم يعد يكتب له أبداً. لا يعرف عنه شيئاً. لا تفوت ثانية دون أن يفكر فيه.. ولا يمكنه أن يتحمَّل تكاليف زيارة لمصر.

الأغنياء فقط هم من يقطعون سفرهم ويحجزون تذكرة لأول طائرة رجوع إذا احتاج لهم قريب أو عزيز، أما الكادحون فيوفِّرون ثمن التذكرة ويحترقون قلقاً وشوقاً في الغربة في انتظار الخطابات التي تثير جنونهم لو نقص عدد كلماتها، فتجعل رؤيتهم غير واضحة لكل التفاصيل.

أرسل في خطاب رقم هاتف دولي وأموال أكثر من المعتاد، وأوصى أمه بأن تعطي الأموال الزائدة لأحمد ليجري له مكالمة ضرورية. نفَّذت أمه ما قاله. أخذ أحمد المال ولم يتَّصل بأخيه.

خمس سنوات من الغربة يتخللهم قلق على أحمد، تحوَّل لأرق وفقدان شهية وتعب جسدي وتأنيب ضمير. قبل أن يكون أخاه الصغير، هو مسؤوليته التي يتشاركها مع أم لا تعرف أن تقرأ أو تكتب، قسمها الحزن على زوجها الذي كان ابن عمها، والحسرة على حال ابنها الأكبر الذي تعتبر أن مستقبله قد ضاع من أجلهم؛ لأنها الوحيدة التي تذكر حبه وحماسه الطفولي للتعليم وأحلام مراهقته التي حكى لها عنها.

لا يريد أن يبقى هناك طمعاً في مال أكثر ويكون ثمن ضياع أخيه. شكَّ في أنه تعرَّف على أصدقاء السوء فضاعت أخلاقه.. قد يكون أدمن أو تعرَّف على

فتاة غيَّرت من حسن سلوكه، وذلك أيضاً سبب رسوبه في الجامعة. هكذا تحكي الأفلام العربية التي هوَّنت عليه أيام الخليج الصحراوية الجافة.

قرَّر العودة نهائياً.

زارهم أحمد.. احتضنا بعضهما بحذر ونظرات عتاب وسكوت لم يخلُ من تمتمات غير مسموعة قد تكون "حمد الله على السلامة" و"الله يسلمك".

عندما جلس محمود يتفقَّده في صمت ويسمع حكاياته المختصرة، عرف أنه ليس انحراف شباب عادي. إنه تطرُّف تجاوز حدَّ الرجوع؛ نظراته حادة. مخارج ألفاظه عربية سليمة ومتضخِّمة. يبتسم لهم ابتسامة باهتة لا معنى لها. يتحاشى النظر لأخيه تحديدًا. يتحفَّظ في إبداء مشاعر الاشتياق لهم. لعثمته لا يداريها ولا يخجل منها كما اعتاد. مستوى جديد من الثقة والقوة. جسمه يبدو أقوى. لحيته أطول. وجهه حديدي لا ينقل مشاعر معينة. عيناه بها شراسة أطفأت لمعتهما البريئة.

يا ليته أدمن كما ظنَّ.. الإدمان له علاج.. الإدمان دمار شامل له مصحات خاصة يُلقى بها المريض ولو بالغصب. يمرُّ ببرنامج محدَّد معد سلفاً لحالته، ثم يعود طبيعياً مرة أخرى بعزيمة شخصية ومساندات معنوية.

أما التطرُّف الفكري.. لا يعالجه إلا المتطرف نفسه عندما يفكر ويقرر وحده التراجع عنه.

عرف أنها سكة اللارجوع واللانهاية واللاوعي والإرادة المسلوبة أمام تعليمات "الأمير" الذي يجعلونه رباً ثانياً وقِبلة أخرى ويتبعونه بعمى غبي. إنها سكة الكره والسخط والتكفير والنبذ.

سكة البعد عن الله ظناً أنها سكة الاقتراب منه.

ما هذا الغباء؟ ما هذا العبث الفكري الديني السياسي الأحمق؟

منذ بداية الخليقة وولادة فكرة النضال، يموت المناضلون ولا يموت الزعماء إلا نادراً جداً. يموتون وهم يعتقدون إنهم يدافعون عن هدف وقضية، ولكنهم في الحقيقة يموتون غالباً من أجل رمز أوهمهم وهم لا يشعرون. رمز استغلّ طاقتهم الشابة لخدمة قناعاته هو وهم لا يحسُّون. لعب بضعفهم واحتياجهم وحرَّكهم بخيوط كعرائس على مسرح الموت وهم يظنون إنهم مخيَّرون.

يموتون اختيارياً بناءً على تعليمات شخص دون أن يفهموا لماذا لا يموت هو في سبيل تطبيق فكرته...

هل هناك ميتة أكثر سذاجة؟

كان يتمتَّع محمود بحكمة هادئة جعلته يعرف أن النقاش المباشر هو معركة خاسرة من بداية جولتها الأولى. مَن مثل أخيه قد حفظوا جيداً ما يجب أن يقال في مواجهاتهم مع "الآخر". مَن مثل أخيه يسدُّون آذانهم بحديد في أي جدال ولو حتى تظاهروا بمنتهى الإنصات.

انسحب محمود ليدخِّن سيجارته في الشرفة.. نصحه أحمد أن يُقلع عن تلك العادة المضرَّة بالصحة. ردَّ محمود "إن شاء الله". وأعطاهم ظهره وهو يستند على السور.. ثم احتدَّ أحمد في حوار مع أخته: لماذا لم ترتدي الحجاب حتى الآن؟ لم تكن أخته قد وصلت سنَّ البلوغ بعد، ولكنها تخطَّت العاشرة. اعتقد أن ذلك ضمنياً بلوغ.. بدأ حواره معها هادئاً ولم يكن ينوي أن يتطوَّر عن مجرد اقتراح ونقاش عام. هو أقرب لها في الأساس من محمود. حتى إنه في تلك الأيام التي اختفى فيها عنهم. حين أخبرت هي بنفسها

زميله الذي أتى ليطمئنهم عليه، أنها تريده أن يأتي ليشرح لها مادة لا تفهم منها شيئاً جاء في نفس الأسبوع.

كانت وردة حالة استثنائية بالنسبة لكل فرد في تلك الأسرة؛ هي البنت الوحيدة، الصغيرة، اليتيمة التي لم ترَ أباها إلا فوتوغرافياً.

لم يسمع محمود من حديثهم شيئاً إلا صوت صراخ نسائي مفاجئ. استدار ليجد أحمد يهم ويمسك بشعرها، وحاول أن يصفعها على وجهها أو يضربها أو يهددها بذلك.

جزَّ محمود على أسنانه، فبرزت عضلات الفكين بقوة. اتسعت حدقتا عينيه. انتفخت عروقه غيظاً، فبان احمرار وجهه رغم سماره. قفز من مكانه قفزة أسد رأى عن بُعد فريسته بعد أعوام من الجوع والانتظار.

اتَّجه ناحيته. أمسك أخاه الأصغر من عنق قميصه، وألصقه بعنف بأقرب حائط في حركة أخذت ثواني. أصبح هناك وجهان متلاصقان، يشبهان بعضهما جداً. الفرق هو لحية أحمد الطويلة الخفيفة المتناثرة.. الآن لا يفصل بين أنفيهما أي مسافة. العين في العين. الأنفاس تتصاعد في صمت مخيف وسط ترقُّب أختهما وأمِّهما.

- المنظر اللي أنا كنت هشوفه ده لو اتكرر.. أو عرفت إنه اتكرر، أقسم بالله، ورحمة أبويا، ما يكفيني فيك ٨٠ عيار.. وأنت فاهم وعارف.. إني أقدر أعملها.

ردَّ عليه أخوه بارتباك من يشعر بالذنب وتلعثم شديد؛ لأن التلعثم يزيد من حدته صعوبة الموقف:

- تقتلني؟ تقتلني إيه؟ أنتَ ما تقـدرش تقتلني.. أنت.. قبل.. ما.. تعرف هي قالت لي إيه.

زَعقَ محمود بطبقة صوت عالية شرخت الجملة في آخرها:

- تقول اللي تقوله.. من غير ما أعرف! أنت ما تمدِّش إيدك عليها! ما تلمسهاش! من غير ما أسمع كلمة.. تدخل البيت محترم وتطلع منه محترم.. محترم يعني راجل يعني ما تضربش مرة.. متربِّي زي ما أنا وأمك ربيناك.. اللي بيتقال لك برّه عننا تسيبه معاك برّه...

دفع أحمد أخاه بعيداً.. دخل حجرته التي كانا يتقاسمانها. ارتفعت أصوات أشياء تقع وأشياء تتحرّك.. خرج بشنطة كبيرة مسرعاً.. وعند الباب أخرج من حقيبته التي جاء بها هدية، وعاد ليضعها أمام أخته وهي تبكي، ولم ينظر في وجه أمه وأخيه.

من يومها أو من "يوم العركة الطين" كما أسمته الأم، ولا يزورهم ولا يتصل بهم، ولا يأتي مراسيله الذين يشبهونه، حتى جاء من طرفه شخص ليسلمهم ظرفاً أبيض داخله أموال... فقد عرف بكارثة محمود.

كارثة التسعينيات التي سبَّبت ضرراً نفسياً لهذا الشعب أكثر مما سبَّبه زلزال ١٩٩٢: القبض على الريان.

تمَّ ارتكاب ملايين الجرائم في حقِّ المواطن المصري منذ العصر الملكي، ولكن تظلُّ جريمة شركات توظيف الأموال واحدة من أضخم تلك الجرائم وأكثرها إيلاماً.. شركات انتشرت بسرعة.. نشاطها انتعش بملايين من مدَّخرات المصريين الذين كان أغلبهم من العائدين من الخليج العربي، وأغراهم سعر فائدة وصل إلى أكثر من ٣٠% أحياناً. شيء غير مسبوق. وضعوا كل ما ملكوا وادَّخروا من أموال.. وضعوا مُرَّ الغربة في شكل عملات ورقية. بشكل مريب

لم يتم تفسيره منذ بداية التسعينيات وحتى اليوم، فتحت الحكومة الباب على مصراعيه لتلك الشركات، حتى إن المدَّخرين كان يطمئنهم ويشجِّعهم رضا ومساندة الدولة لهم، وبشكل مريب أغلقته فجأة بعنف في وجوههم، وأخذت تطيح بأصحابها والعاملين فيها في السجون، ووضع النظام يده على كل ما لديها من ممتلكات ومصانع وعقارات.

منتهى التبجُّح الحكومي والفساد الإداري والفشل البيِّن.

لم تكن تسمح السيولة المادية للشركات بردِّ الأموال ورقياً لأصحابها. هناك من استرجع نصف ما ترك، وبقيمة ما تبقى كان عليه أن يختار بين غسالات وبوتاجازات وثلاجات من مصانع ملكتها الشركة من ضمن ممتلكاتها وأنشطتها التجارية!

هناك من أصيب بالشلل، وهناك من مات من شدة الاكتئاب أو بالسكتة القلبية، وهناك من انتحر.

وقد كانت بالنسبة لمحمود بمثابة طعنة مفاجئة! كل ما ادَّخره، ضاع. كل سنوات الغربة التي قضاها وحيداً يعمل ليل نهار طوال أيام الأسبوع، ليس لها فائدة الآن. ولكن هناك إيمان يملأ قلبه ويظهر في ابتسامة لا تفارق وجهه رغم كل ما حدث ويحدث له، يجعله من هؤلاء المصرِّين على الصبر.

{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

سيبدأ كهربائياً وحلاقاً وميكانيكياً وأي شيء ممكن. سيبدأ من الصفر.

أصبحت فترات صمته أطول.. يجلس وحيداً يعزف "الأكورديون". يتصفَّح الجرائد اليومية مع أكواب الشاي الصعيدي المتلاحقة والسيجارة التي لا

تلبث أن تنتهي حتى يُشعل بها أخرى. والشعر الأبيض بدأ في الزحف على جانبي رأسه.

قال محمود لمن أرسله أخوه وهو يعيد له الظرف:

- قول له إحنا مش عايزين فلوسه اللي مش عارفين جابها منين دي.. قول له ييجي يزور أمه علشان مريضة.. ولا هو الدين بيقول إنك ما تسألش على أهلك بالسنة يا ابني؟

حزَّ في نفسه رفض أخيه لأمواله وشعر بضآلته. انقطع أحمد أعواماً عن رؤيتهم، ليس غضباً بل حباً، كان يريد أن يراهم ويزورهم.. افتقدهم، ولكن أن يتجنَّبهم ويُقنع جماعته ألا أمل فيهم أفضل من أن يتصل بهم ويصبح عليه هدايتهم وردُّهم عن المعصية.. قاطعهم لأنه عرف أنه أصبح خطراً عليهم.

لم يجرِّب محمود حظَّه في الخليج مرة أخرى؛ لأنه خاف من أخيه عليهن. فقد أوشك على سحل أخته من شعرها وهو يفصله أقل من متر عنه، فماذا لو فصلتهم مسافات وبلاد؟

إن شعور الخوف من شخص من المفروض أن يكون مصدراً للأمان، يضاعفه شعور بالأسى والإحباط.

في شتاء ١٩٩٧ فتح جريدة الأخبار الرسمية كالمعتاد ليجد خبراً صادماً عن "مذبحة الأقصر". ذلك الهجوم الإرهابي الدموي البشع الذي راح ضحيته ٥٨ سائحاً بريئاً وأقيل على إثره وزير الداخلية حينها.. سريعاً انتقل لصفحة الحوادث لمزيد من التفاصيل.. رأى صور جثث الرجال الست الذين نفَّذوا العملية ثم عُثِر عليهم في مغارة منتحرين. تقزز من منظرهم المشوَّه ومعالمهم

الضائعة. بدأ في قراءة أسمائهم المكتوبة تحت صورهم.. بعد خمسة أسماء.. كان اسم أخيه هو الاسم الأخير.

مات أحمد دون أن يقرِّر من نفسه الابتعاد عن هذا الطريق كما دعا له في كل صلاة، وبين كل صلاة، وبعد كل صلاة.

وضع الجرنال جانبه بهدوء وصمت من الصباح حتى المغرب دون أن ينطق بكلمة.

أيتَّهم نفسه بالتقصير؟ أم يتَّهم أحمد بالغباء؟ أيحاسب نفسه على مسافات البعد التي تقبلها؟ أم يلوم أحمد على خلقها؟ أيدعو له بالرحمة؟ أتجوز عليه الرحمة أصلاً؟ أم يدعو لنفسه بالصبر؟ كيف سيُبلغ أمَّه التي أهلكها قلب يعمل بأقلَّ من كفاءته الطبيعية؟ كيف سيُبلغ وردة التي رغم عنادها في ألا تصارحه في أنها تشتاق لأحمد هو يرى في عينيها لهفتها كلما سمعت اسمه؟

كبرت أخته.. أتمت الثامنة عشرة. ناداها. جاءت. أراها الجريدة. ألقتها جانبه بيد مرتعشة، وقالت بصوت مكتوم وهي تحبس دموعها:

- طب ما هو كان ميت من زمان بالنسبة لنا.. فرقت إيه؟

نظر لها يتأمَّل قوتها التي فاجأته وهو يفكر في إجابة تليق بواقعيتها.

- تفرق إن الأمل حتى ما بقاش موجود. مات معاه.

قالت بحدة المكابر:

- أنا كنت نسيته.

اتَّفقا في هدوء على ألا يُبلغا أمهما الليلة. ولكنهما استيقظا على صراخها قبل شروق الشمس، جاءها مخبر من جهاز أمن دولة يستدعي محمود لسؤاله في التحقيقات.

قالت:

- تحقيقات إيه؟ كفى الله الشر.

صرخت أمهم على باب البيت وهي تتلقى الخبر.. في وسط ولولتها العالية تكاد تلتقط من وسطها تساؤلاً يرجُّ المكان من شدة الصراخ: إزاي؟

لم تسمع حتى الإجابة.. لم تسمع أن ابنها لن يذكر اسمه التاريخ إلا بالسبِّ، وأنه مات في مغارة مختبئاً بلا قيمة.. في سبيل "مبادرة رسمية" لوقف العنف بين "الدولة" وبين "تنظيم إرهابي".

سكت قلبها الضعيف ونام في كمد.. وقعت على الأرض في لحظتها.. لم تقم ثانية أبداً.. ترى المشهد من ظهر محمود ووردة.. هي على اليمين وهو على اليسار جالسين أرضاً يحاولان إفاقتها وإنقاذها.

تحسَّس محمود شريان يدها.. ثم قام وقال:

- لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.

أخذ يضرب كفاً بكفٍّ وينظر إلى السماء، وكأنه تحوَّل إلى درويش فجأة.

قالت وردة مندهشة ومرعوبة وهي تلفُّ وراءه:

- يعني إيه يا محمود؟ يعني إيه؟

بعد الدفن، قرَّر أن يبيع نصيب أمه الهزيل من أرض امتلكتها ضمن عدد كبير من الأخوات، ويرحل إلى مكان آخر.. يرحل بعيداً. قرر أن يترك هذا

البيت الذي ضرب فيه أخاه وخرج منه ولم يره مرة أخرى إلا قتيلاً.. البيت الذي جاء على بابه خبر وفاة أبيه، وماتت أمه أمامه.

أخذ وردة ورحل إلى العاصمة؛ القاهرة. يريد لأخته حياة أخرى كما كان يريد لأخيه. حياة أحلى. يريدها أن تكون ما لم يستطع أن يكونه. رآها أكبر من نجع حمادي. رآها وردة يجب أن تُسقى بنسيم المدن.

عاش في القاهرة هو وأخته فقط. عاش هناك أكثر من عشر سنوات، فبعد ثلاثة أشهر من استلامه أول وظيفة جرسون بـ"جروبي" في وسط البلد، حيث استأجر شقة بسيطة هناك، قابل الكاتب الكبير فاضل زكي وعرفه. بعد مناوبته، دعا نفسه للجلوس معه. وحكى كل حكايته وأشهده على ظلم مصر. وافقه الكاتب اليساري. ولأن الفنانين ينظرون لك وهم يتجوَّلون داخلك، تأكَّد فاضل من حسن خلقه وصدق غلبه، وعرض عليه أن يترك تلك الوظيفة وسيعطيه ضعف مرتبه أياً كان مرتبه مقابل أن يأتي له يومياً من التاسعة صباحاً حتى السابعة مساءً ليهتم بشؤون المنزل ويديرها كلها، فهو لا يعرف كيف يتصرَّف منذ أن توفيت زوجته. وافق. وبعد فترة، جاء له بوظيفة أخرى، في عيادة ابن صديق له.. طبيب نفسي معروف اسمه يحيى سالم، ويعمل عنده من الثامنة حتى التاسعة مساءً.

بلا حبيبة.. بلا صاحب.. بلا متعة سوى الطعام والشاي والتدخين. يعمل اثنتي عشرة ساعة بمرتبين تكفلا بأمانه المادي. يعود إلى منزله ليجالس وردة ساعة. يؤدي صلاة العشاء. يشرب سيجارته في شباك غرفته. يتمدَّد على سريره في الظلام. يسرح في السقف. يدعو لأخيه بالمغفرة. يترحَّم على أمه. يبتسم وهو يتذكَّر أباه. يدعو على الحكومة وعلى من أضاع أمواله و على أي مُدعٍ باسم الدين.

يحتضن أحزانه ووحدته وينام.

تأتي السعادة لمن لا يستحقونها، وقد تأتي التعاسة لتعتصر قلوب من لا يستحقوها.. و{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

وردة الأسيوطي

توضيح صدق النيات شيء واجب تقديره، أما الوعود فهي فكرة حالمة زيَّنتها لنا الأفلام والروايات عندما كان يَعِد البطل فيعدو بحوراً ومحيطاتٍ، ويمشى على قدميه من بلد لبلد ويهزم الأعداء ويحارب الجبابرة، حتى يوفي بوعده لحبيبته أو أمه أو أهل بلده. على أرض الواقع، الظروف تختلف والقلوب تتغيَّر، فكيف نَعِد اليوم بقلب واثق ونحن لا نعرف بما قد يأتي به الغد؟

افترش الأرض ونام على ظهره. نامت جانبه. مدّ ذراعه لتسند عليها رأسها. طفلان ناما في الخلاء جانب بيتهما، ينظران إلى السماء، يلعبان لعبتهما المفضلة: رسم أشياء أو كائنات بتشكيل السحب المتفرقة. بدأ اللعبة كعادته وهو يشير إلى أعلى..

- السحابتين دول.. معزة ولابسة كردان.

- لأ شكلهم.. شكلهم.. بنت.. راكبة عجلة..

- إزاي بقى؟

- شايف الحتة اللي على اليمين دى؟

- آه.

- طيب ده دراع العجلة.. وده فستانها أهو..

- آه صح..

- بس برضه تنفع معزة.. عارف.. أنا نفسي في عجلة!

- ما هو محمود مش راضي..

- ما تتحايل عليه يا أحمد والنبي..

- أقول له إيه بس؟

- قول له إنها ليك.. وعلمني عليها وأركبها معاك من وراه.

- من وراه لأ! ممكن أقنعه إنها ليَّ أنا.. ونبقى نقول له تاخدي لفة مني.

- ماشي.. أي حاجة.

محمود أخوها الأكبر لم يكن قريباً من قلبها مثلما كان أحمد. أحمد يكبرها بأربع سنوات، أما محمود فيكبرها بعشر. كما أنه بعد وفاة والدهم، أخذ محمود هذا الدور الأبوي الذي يجب أن يكون فيه من الحزم قدر ما فيه من اللين، مما جعل بينهما تلك المسافة المفهومة، وجعلها تحبه وتحترمه، إنما تصادق أحمد.

ركبت الدراجة في مساحة رملية واسعة، وكان أحمد ممسكاً بها يملي عليها كيف تحتفظ بتوازنها. جاء أحد الأولاد ليطلب أن يجرِّب دراجة أحمد الجديدة التي هي سرياً دراجة وردة الجديدة، فنظر لها أحمد نظرة استشارة، فحرَّكت رأسها بخبث وببطء يميناً ويساراً رافضة، فرفض. سخر منه الولد غيظاً وقلده في طريقة كلامه؛ لأنه يتلعثم في النطق منذ أن بدأ الكلام. لم يردَّ أحمد حرجاً. استشاطت هي غضباً. قالت: "نزلني". نزلت. فقالت للولد: "ترضى حد يتريق عليك؟". سبَّها. تدخَّل أحمد حينها. سخر منه الولد مرة أخرى. بحثت عن حجر حولها ووجدت قطعة من طوبة بناء حمراء. قذفته على جبهته عن قرب. رأى الولد دمه، فصاح: "آه ياممّا

ألحقيني ياماي". قالت لأحمد: "اركب العجلة وأجري وأنا هجري جنبك". جريا سوياً رعباً.

وبّخه محمود بعد أن اشتكت أم الولد. الولد أحرج أن يقول إن بنتاً ضربته. قال إن أحمد هو من فعل به ذلك. فتدخَّلت هي لتحكي له الرواية الحقيقية. فوبّخه لأنه يسكت لمن يعايره بما ليس عيباً فيه، ووبّخها لأنه لا يصح أن تضرب فتاة رجلاً: لأنه أقوى منها وقد يردُّ لها الأذى الجسماني أضعافاً. قالت: "أقوى إيه؟ ده خد الطوبة في راسه وقعد يولول زي أمه!". ابتسم محمود حينها وقال: عيب! برضه ما يصحش. قالت: "أومال يصح يتمسخر على أحمد؟". قال: "لأ ما يصحش". قالت: "لو قلت نقول لأمه، أمه مش بتعمل له حاجة". قال بربكة شاب مضطر أن يكون أباً: "المهم تخليكم مؤدبين.. وأنتَ ترد على اللي يضايقك زي الرجالة وإنتي ما تضربيش حد.. بدل ما أسحب العجلة".

كَبرا.. حصل أحمد على شهادة الثانوية العامة بمجموع لم يحصل عليه أحد في البلد كلها. جلسا سوياً يستندان على شجرة.. قال أحمد:

- أنتِ بتعيطي ليه دلوقتي؟

لم ترد، فأكمل:

- رايح أتعلم يا حمارة!

لم ترد..

- إنتي هتعملي في جوزك إيه؟! ده كده وأنا حياالله أخوكي.

- أنا بحبك أكتر ما هحبه..

- طب لو بتحبيني بطلي عياط.. وأنا وعد عليّ.. مفيش أسبوع يمر إلا لما آجي جمعة وسبت!

- وعد؟

- وعد.. ورحمة أبويا!

- لأ أحلف بربنا..

- والله العظيم..

توضيح صدق النيات شيء واجب تقديره. أما الوعود فهي فكرة حالمة زيّنتها لنا الأفلام والروايات عندما كان يعد البطل فيعدو بحوراً ومحيطات ويمشي على قدميه من بلد لبلد ويهزم الأعداء ويحارب الجبابرة، حتى يوفي بوعده لحبيبته أو أمه أو أهل بلده.. على أرض الواقع، الظروف تختلف والقلوب تتغيَّر. فكيف نعد اليوم بقلب واثق ونحن لا نعرف بما قد يأتي به الغد؟

التزم بالوعد سنة. وأخلّ به أكثر من أضعاف السنة. كانت حينها لا تدرك معنى الإرهاب الديني لتدرك أن أخاها أصبح مشاركاً فيه. عقلها الصغير لا يدرك أكثر من أنه عندما سافر إلى القاهرة أصبح لا يحبهم وأصبح عنيفاً على غير عادته. قال لها محمود: بكرة يعقل. قال لها ذلك فقط دون شرح. أعطاها وأعطى نفسه أملاً في غد لم يأتِ أبداً.

في هذا اليوم الكئيب الذي جاء فيه أحمد لزيارتهم بعد انقطاع مؤلم. احتدّ بينهما الكلام.. كانت وقتها في مرحلة نهاية الطفولة وبداية سنّ المراهقة. هذا السنُّ التي تزداد فيه حساسيتك للكلمات وتنفعل لأي شيء. طلب منها أن ترتدي الحجاب مثل باقي بنات القرية. قالت أمها: لسّه صغيرة.

قالت هي: أنتَ مش راجل!

قالت: أنتَ لما كنت بتتضرب كنت أنا اللي بدافع عنك.

قالت مرة أخرى: أنت مش راجل.

كانت تتكلم مع أحمد القديم الذي تعرفه. فهبَّ في وجهها فجأة شخص آخر غريب لم تتخيَّل أنها ستقابله يوماً. الشخص الذي يعيش تحت شعار "السيف في اليد اليمنى والمصحف في اليد اليسرى".. نسي أنها وردة أخته. تذكَّر فقط التعليمات وما حفظه. قام من مكانه وكاد أن يضربها.

المفاجأة عندما تأتي من غريب تكون مجرد موقف غير متوقَّع، أما عندما تأتي من قريب تكون صدمة.

لم ولن تنسى هذا المشهد، ليس لأنه المشهد الأخير بينهما فقط. ولكنه أول درس عملي أهدته لها الحياة بعنف: الناس يتغيَّرون.. أقرب الناس يتغيَّرون.

وحين تدخَّل محمود ونبَّهه أن يحترم البيت وقوانينه. انفعل أحمد وخرج بعد أن ألقى لها بهدية أمامها. أخذت الهدية وجرت تجاه الباب وراءه. لم تستجب لمحمود وهو يأمرها أن ترجع.

قالت وهي تناديه وتبكي وتقفز قفزات صغيرة في مكانها وتدب برجلها في الأرض:

- يا أحمد.. أنت رايح فين؟

قالت وهي تصرخ بطبقة أعلى بعد أن نزلت على الأرض:

- أنا آسفة والله!

خُطى أحمد كانت أسرع من خفقات قلبها.

رمت الهدية بكل تملك من قوة، وقالت:

- مش عايزة منك أي حاجة، ومش عايزة أشوف وشك تاني.

خرج محمود بعد أن أمهلها بعض الوقت الذي يمكن خلاله ببراءة دموعها أن تجعل أخاهما يعدل عن المبالغة في غضبه. حملها من على الأرض. ودخلا سوياً وهي تتفوّه بكلام غير مفهموم. في اليوم التالي، استيقظت بعين شديدة الاحمرار كأنها نقطة حمراء وأخرى عادية.

قال الطبيب إنه "طق لها عرِق" من شدة الانفعال.

معقول لا يرجع لها أحمد ويتركها ويذهب بسهولة هكذا؟ الذي علَّمها كيف تطير الطائرة الورقية، وكيف تقود دراجة، وكيف تحسب وتطرح وتجمع، وكيف ترتِّب أشياءها بشكل عملي في شنطة المدرسة، وكيف تتسلق شجرة حتى تلتقط التوت، وكيف تذهب لأستوديو "الذكرى الحلوة" ليصوّرها عم حمدي؟

لم يؤلمها موت أبيها لأن عمرها كان لم يتخطَّ سنةً بعدُ. لم يؤلمها خسارة أخيها الأكبر محمود لكل ما جمعه في الخليج في إحدى شركات توظيف الأموال. لم يؤلمها موت أمها. كما آلمها موت أحمد متعفِّناً مشوَّهاً في مغارة ونعته بإرهابي طول العمر، وليس إرهابياً مشهوراً تختلف حوله الآراء مثل أسامة بن لادن، إنما إرهابي مغمور ونكرة لا يعني أحداً.

اشتاقت له كثيراً.. لكنها تخفي مشاعرها حتى لا تُثقل أحداً بهمِّها.

وهل يفيد البكاء والحزن على من مات؟

وما أغنى الأموات عن كل مشاعرنا..

عاشت في العاصمة مع أخيها وحدهما في شقة في وسط البلد، في عمارة قديمة جانب مطعم "جروبي" الشهير.

ويا لبشاعة المدينة! أهي تلك العاصمة؟ أهذا هو الحلم الذي يراود الكثير من أبناء الريف والصعيد؟ سواء كان لفرص العمل أو المعيشة السارة مقارنة بأحوال بلدانهم؟ زحمة، وفوضى، وهواء بعوادم رمادية، وتحرُّش، وألفاظ بذيئة، وضوضاء، وإزعاج، ووجوه عابثة، وجيران لا يعرفون شيئاً عن بعضهم، وشحاذون يتسوَّلون بلا حماس، وشجارات على أتفه الأسباب، و"تكاتك" تحتل الشوارع مؤخراً وتنطلق منها أغانٍ مزعجة، وميكروباصات تقود بقوانين مرورية خلقها سائقوها لأنفسهم ولا يقوى أحد على خرقها.

كيف يعيش حشراً في القاهرة أكثر من ٧ مليون ثم يعيش في جنوب سيناء أقلّ من ٢٠٠ ألف؟! إنه سؤال خبري؛ لأن الإجابة معروفة: سياسة المركزية.. تلك السياسة التي اتَّبعها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عملاً بمبدأ السيطرة على الدولة يبدأ بالسيطرة على العاصمة، فجعل لها بريقاً زائفاً.. بريقاً يجعل حتى أبناء مدينة ساحلية جميلة غنَّت فيروز لها ولبحرها ولشطِّها ولنسمتها البحرية كالإسكندرية، يتركونها ويأتون ليعيشوا في العاصمة: لأنها "المركز"، والمثير للسخرية أن أبناء العاصمة يريدون أن يهجُّوا منها ولا يستطعيون لأنها "المركز". هذا كله "هراء مركزي" يبدأ من الحكومة كالعادة.

تخرَّجت في كلية الآداب قسم اللغة العربية. الأولى على دفعتها. كرَّمتها الجامعة. تعيَّنت معيدة. حصلت على الماجستير. تعيَّنت كمدرس مساعد في الجامعة. اشتغلت في مدرسة لغات دولية بفضل توسُّط من الدكتور الذي يعمل أخوها في عيادته. تُذاكر للحصول على شهادة الدكتوراه.

في الحياة، هناك غالباً محرِّكان أساسيان للنجاح. المحرِّك الأول هو: ألا تخذل أهلك.. أن تبقى تلك النظرة بالفخر والتباهي في عيونهم ولا تنطفئ، خصوصاً لو كانوا فعلاً يستحقونها. المحرك الثاني هو: الطموح الشخصي.

محركها هو محمود بكل ما عاناه يستحقُّ أن تبقى نظرته فخورة. أما الطموح فهي لا تعرفه، قد تريد فقط أن تبقى منشغلة دائماً، لا تريد أن تكون هناك أي مساحة زمنية لتفكِّر فيما حدث وفيما يحدث وفيما تتمنى أن يحدث. يكفيها ساعات عذاب ما قبل النوم والشعور بالغربة الذي يتضخَّم ليلاً.

تريد ألا تفكر في أي ذكرى.. وألا تفكر فيه.. فيه هو تحديداً وفي هذا الشعور بالذنب الذي يطاردها منذ ثماني سنوات، منذ أن قابلته وأحبَّته.

عند أي مستوى من الأخلاق تقف امرأة تقبَّلت أن تدخل في علاقة سرية مع رجل متزوج وله أولاد؟ عند أي مستوى من عدم تقدير الذات تقف امرأة تقبل أن تبقى في مكان بعيد وسري دون حتى خطة أو اتفاق وقرار مستقبلي؟ ودون حتى أن تحاول أن تدفعه لتوضيح موقفه خوفاً من أن يكون موقفه عكس ما تحلم به.. فتضطر أن تبعد عنه وتفقده.

يستغرب أخوها أنها ترفض فرص زواج كثيرة وكلها مناسبة ولكنه لا يجبرها على شيء. تحزن عندما يحدّثها بحماس عن يوم فرحها. لا يعرف عن قصتها شيئاً. لا أحد يعرف عن قصتها شيئاً.

هذا النوع الخاص من الأسرار لا يمكن أن تتشاطره مع أحد. لن يقدِّرها أحد. تبقى التفاصيل داخلك. تثقلك وحدك.

نؤجِّل المواجهات التي نعرف أن عواقبها ستتعارض مع رغباتنا، ولكنها واجهته ليلاً في يوم شتوي ممطر وكئيب.

- أنا مقدرش.. أنا لا أقدر أتجوز عليها ولا أقدر أطلقها. أنا بحبها. وغير إني بحبها، هي أم ولادي.

- بتحبها؟

- أنا ما قلتش ولا مرة إني مش بحبها.

سكتت.

- وبحبك.. بس إنتي حاجة تانية.

- حاجة لازم تفضل متسخبية؟

- حاجة أحلى من إنها تبان وتاخد الشكل التقليدي..

قاطعته منفعلة:

- لأ أنا بقى عايزة الشكل التقليدي.. الشكل الوحش الرسمي للحاجات ده.. عايزاه!

- أنا آسف..

- يعني إيه؟

- مش هينفع.. وأنا كنت واعي كفاية.. وعمري ما وعدت بحاجة.

- ضمنياً وعدت..

لم يرد.. فارتبك صوتها ارتباك النهايات، وهي تسأل:

- طب أتصرف إزاي؟ أعمل إيه؟ المفروض أعمل إيه؟

- أنا مش هتضايق من أي قرار يريَّحك.. عايزة تفضلي معايا.. خليكي.. مش عايزة..

ثم سكت ثواني..

- بس أنا أتمنى تفضلي موجودة..

نظرت جانبها، وسرحت لمدة دقيقة لم يقل هو فيها شيئاً ثم قالت:

- ما نتصلش ببعض تاني.

حين تفاجأ، انفعلت:

- متفاجئ كده ليه؟ يمكن أبقى عشت عبيطة ٨ سنين، مش عيب.. ده اسمه حب. بس العيب بقى إني أكمل عبيطة. العيب إني أفضل مع واحد عنده بيته وبيحب مراته وعياله، وفوق ده مستمتع بإمكانية إنه لسه ممكن يحب ويتحب عادي. ومعتبر إن دي حالة لازم تفضل كده.. وملعون أبو بقى اللي بيعيش معاها الحالة دي.. تعيش لوحدها.. نفسها تفرح ولا لأ.. نفسها هي كمان تجيب عيال ولا لأ.. التساؤلات التافهة دي مش قضيتك.. المهم الحالة..

نظر لها في حزن. استكملت بصوت أكثر رعشة.

- أنا قعدت مأجلة النقاش ده وفاكرة إني كده ذكية.. مستنية أبقى أكبر من مجرد حالة علشان تتمسك بيّ وتحطني في مكان أستحقه..

- أنا حقيقي آسف..

- أنا اللي آسفة..

غادرت سيارته، ومشت مسرعة تغطي رأسها بحقيبتها في المطر.

في الحب، تدفعنا الرغبة والوله والحماس إلى الإبداع في خلق بدايات تحفر في الذاكرة، ثم يدفعنا الزهق العاطفي إلى وضع نهايات صُمِّمت للنسيان فقط.

غادرت حياته كلها.

تقضي يومها بين المسلسلات والأفلام، والشاي والقهوة في الشباك، والمذاكرة والتدريس، وأغاني عبد الحليم، والاعتناء بمحمود، ومحاولة فاشلة للنسيان، وهي تحتضن تليفونها التي كتمت رنينه حتى تتفاجأ حين تجد اتصالاً منه. ولكن الاتصال لا يأتي.

تقضي حياتها بين البُعد: فراق الأحباب الاختياري.. وبين الموت؛ فراق الأحباب الإجباري، وبين الأشتياق لوطنها الجنوبي المنسي برغم كل مشاكله وكل المسكوت عنه، وبين الغربة، وبين الوحدة، وبين حلم الزواج الذي لم يتحقق، وبين الاشتياق إليه، وبين كرامتها المجروحة.

قال لها محمود: مال عينيكي خارجة لبرَّه كده؟ إنتي ما بتاكليش؟

ردَّت وهي تداعبه: خارجة لبرَّه من المذاكرة اللي إنت ماشي ورايا تزّن عليَّ بيها، وعايزني أفضل مكبوبة عليها.

عيناها برزتا من البكاء قبل النوم، وهو الأمر الذي أصبح عادة شبه يومية.

قال فخوراً وهو يحتضنها: أومال إيه؟ ده إنتي مشرَّفاني.

دخل المطبخ ثم عاد بطبق فاكهة كبير قطَّعه ورتَّبه بشكل يفتح شهيتها.

قال: تخلَّصيه كله.. وخدي بالك من صحتك.. إنتي متغيرة.. لو فيه حاجة ولا حد مزعلك..

قاطعته: هيكون في إيه بس؟ هو أنا عندي وقت لحاجة؟

قال: طب كلي ورَوَّقي كده..

ابتسمت وابتدت تأكل.

"لفوا بينا.. قالوا لينا

قالوا لينا ع المدينة

وأما جينا.. التقينا..

كل شيء فيها ناسينا..

الوشوش في كل عام

فيكي تتغير قوام

روح يا قمر الليل ونام

ده السكوت زي الكلام

في المدينة هنا..

لفوا بينا.. لفوا بينا

لفوا بينا وجينا هنا

على تلك الأغنية، يتحرك على المسرح حوالي ستين طالباً وطالبة. تختلف أعمارهم وأحجامهم. مقسَّمين لمجموعات، تقوم كل مجموعة بأداء حركات معبرة عن نفس الشيء: مجموعة تمثِّل أنها تجهِّز أغراضها ويحتضنون عرائس وكأنها أطفالهم، ومجموعة تغلق أبواب بيوتها لتركها، ومجموعة

تمثل الحزن وتتحرّك وعلى ملامحها الأسى، ومجموعة قد سبقتهم في الخطوات.

إنها مسرحية ضمن عرض الصيف المدرسي. إنها أول سنة تتبنّى وردة العمل على هذا النشاط مع طلاب فصولها. لقد قرّرت أن يكون موضوع المسرحية هو: تهجير النوبيين كخطوة أولى لبناء السدّ العالي مع وعدهم بالعودة.. ذلك الوعد الذي تحوّل إلى حلم لا يعني تحقيقه إلا المتضررين من المصريين فقط.

النوبة ليست قضيتها.. قضيتها: الغربة في قلب الوطن.

جاءتها من ظهرها امرأة تقول: أنا آسفة بقاطعكم..

ثم صاحت إحدى الطالبات بفرحة: مامي!! وشرعت في الركض نحوها..

استدارت وردة لتجدها عالية خضر التي تُعتبر من أشهر المذيعات الآن. أشارت عالية لابنتها أن تبقى مكانها حتى لا تخرق أي تعليمات:

- أهلاً وسهلاً.. واضح إن حضرتك والدة خديجة..
- بالظبط كده..
- غريبة إزاي ما اعرفش..
- أنا منبِّهة ومهدِّدة لو حد عرف إنها بنتي.. هسحب ورقها تاني يوم.. العيال لما تكبر وهي فاكرة نفسها حاجة.. بيبقوا منتهى قلة الأدب..

ابتسمت وردة:

- خديجة مؤدبة..

- بجد؟ بتعمل أي حاجة كده ولا كده؟

- لأ دي هادية خالص..

- طب استأذنك بس هخدها أودّيها نشوف موضوع سنانها ده علشان معنديش أي وقت الأسبوع ده غير الساعتين دول.. والإدارة سمحت.. مستنية حضرتك تسمحي لي.

- اتفضلي طبعاً.. وسلامتها ألف سلامة.

أشارت لابنتها أن تأتي، فركضت بسرعة آتية لها.. ثم قالت عالية وهي تمسك يد ابنتها وتبدأ في الذهاب:

- وأنا مبسوطة بموضوع المسرحية جداً.. هايل وله معنى.. وأول سنة أتحمس بجد للحفلة.

شكرتها وردة بشدة ثم أخذت تتفقد مشهد خروجها وهي تمسك بيد ابنتها الصغيرة التي تعبر لها عن سعادتها أنها جاءت وأخذتها.

هي أيضاً تستحق ذلك الشعور الدافئ بالأمومة. كانت وما زالت تستحقه، وستحصل عليه عندما تجد أفضل فرصة ممكنة.

استدارت للمسرح وقامت بتشغيل الأغنية مرة أخرى.

عالية خضر

تأتي الصدفة دون أي تحضير ولا ترتيبات بشرية مصطنعة، ليس لها أي قواعد زمنية أو مكانية لتحكمها، لديها قدرتها على دبِّ الروح في علاقة كانت ماتت من سنين، يسهل عليك الاستمتاع بها لو كنت تنتظرها، ويسهل عليك تجنُّبها لو كانت غير مرغوبة، فهي حرة تأتيك وأنت حر ترفضها، ورفضك لا يغضبها؛ فهي لا تتوقف عن أن تأتيك طوال حياتك، ورغم كل ما تعرفه عنها، إلا أنها تدهشك كل مرة تأتيك.

بمجرد أن أفاقت من نومها، مدت يدها لتأتي بتليفونها. تفقّدت كل مواقع الأخبار بعين واحدة نصف مفتوحة.

هناك عادتان أدمنهما أغلب شباب هذا الجيل؛ لا ينامون إلا بعد تفقُّد كل صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، وخاصة التويتر عبر شاشة التليفون، ولا يمارسون أي حركة بعد الاستيقاظ قبل إعادة نفس النشاط الليلي، ومن منهم لا يجد هاتفه جانبه عندما يستيقظ، يصيبه هلع مَن لم يجد عضواً من أعضاء جسده.

توجَّهت إلى الحمام، استعملت ثلاثاً مختلفين من غسول الوجه الذين لهم نفس التأثير على البشرة: القضاء على التجاعيد وعلامات التقدم في السن. هي بالكاد تقترب من منتصف الثلاثينات، إلا أن فكرة العجز ترعبها.

بطء الحركة والاعتماد على الغير ووهن المرض.. هو ما يخشاه كل من يخشى التقدُّم في العمر.

في حديقة فيلتها في حي التجمع الخامس، جلست تشرب قهوتها وتحيك ببراعة رسمة وجه ابنتها على قماش خامته شمعية تملأه الثقوب؛ تحيك

"الكاناڤا". إنها عادة قديمة لها كثيراً ما تسخر منها صديقاتها، فكيف بعد أن سافرت معظم بلاد العالم وحصلت على الماجستير من جامعة أوروبية، والآن هي من أفضل مذيعات مصر، تهوى أن تجلس كالعواجيز تحيك "الكاناڤا" في صمت كلما وجدت وقت فراغ؟ ما هذا الهبوط الفكري في اختيار الهوايات؟ مثلها لا يليق به سوى رياضة الجولف أو السباحة مثلاً.

هي تكره الرياضة وتحمد الله على چينات أورثتها سرعة في معدل الحرق، مما ساعد على أن يبقى جسمها في شكله اللائق الممشوق مهما أكلت، ولكنها تضطرُ أحياناً لممارسة الرياضة كنشاط جسدي ونفسي مهم. الكاناڤا تمرين لقوة البصر والصبر وسعة الخلق، هكذا قالت لها جدتها وهي تعلمه لها، وهكذا شعرت حين تعوَّدت عليه.

"عالية" هادئة جداً. لا تنفعل إلا قليلاً وغالباً فيما يخصُّ أموراً عملية وليست شخصية. لا تتكلم إلا قليلاً، فمن يمتهنون الكلام يملون منه ويتجنبونه اجتماعياً كنوع من الراحة. قد تكون ليست جميلة، ولكن فتيات الطبقات الراقية يعرفن كيف يبدون جميلات دائماً، فلو لم يكن لديهن المؤهلات الفيزيائية الكافية لذلك، فهن لديهن المؤهلات المادية.

عوَّدتها حياتها ألا ترتبط بالأشخاص والأماكن، فهم غير دائمين. منذ طفولتها وهي تغادر وطنها إلى بلد غريب، فتوهم نفسها بأنه وطن ثانٍ حتى تضطر لمغادرته إلى بلد غريب آخر، حتى شعرت في النهاية ألا وطن لها ولا أصدقاء. لم تستقر في مصر إلا بعد وفاة أبيها. كانت أول سنة جامعية لها.

لم تحب ولم تتعلق بأي شخص إلا بيوسف الطيبي، الصديق والحبيب والصاحب الذي استمرت علاقتهما كل سنوات الدراسة بالجامعة وبعدها بسنوات. لا تنساه ولم تعرف صاحباً آخر من حين انتهت قصتهما.

كيف يمكن أن تنسى امرأة رجلاً جرح كبرياءها وتخلى عن حبها ورفض الزواج منها؟

جاء من الخلف، وطبع برقّة قُبلة على رقبتها، ثم جلس وهو يقول:

- "صباح الخير"

قالت وهي تبتسم بشدة:

- "يا صباح النور"

- "أنا ما اتفرجتش على حلقة امبارح.. بس الشباب بعتوا لي قالوا لي إنك كنت هايلة.. كانت عن إيه؟"

قالت في دلال وخبث كأنها تعاتبه:

- " فيه اختراع اسمه يوتيوب.. ابقى شوف.."

- "أنا آسف.. أنا عارف إني مش هنا بقالي كتير.. النهارده أنا إجازة وهذاكر كل اللي فاتني.. "

كم هو مريح ونادر الرجل الذي يعتذر كلما قصَّر أو أخطأ أو غاب!

- "إجازة؟! غريبة.."

- "يومين كده.. وبفكّر نسافر كام يوم أسبانيا ولا حاجة.."

- " يا ريت.. بس قول لي لو أكيد علشان أرتّب أموري.."

قام من مكانه وجلس جانبها، ثم لف ذراعه على رقبتها وقال:

- "بس محلوّين إحنا خالص.."

هناك من يحبون بعضهم لسنوات طويلة ثم يكرهون بعضهم بمجرد الزواج.. هناك من يتقابلون بشكل رسمي ويعيشون قصة تقليدية يحرمهم "الرومانسيون" من تسميتها بالحب، ويتزوَّجون وينجح زواجهم.

تزوَّجت منه عالية في خلال شهور. اعتقد الكل أنها مسألة حسابية عقلانية بحتة، ومحاولة واقعية لتجاوز قصة يوسف تماماً.

زوجها من أمٍّ لبنانية وأبٍ مصري، كان يعيش بين مصر ولبنان. لديه أخ أصغر منه أقام في القاهرة؛ حيث قرر الدراسة فيها.. سكن في شقة في المعادي.

في إحدى ساعات الليل المتأخرة، سمعت عالية صوت صراخ حاد وتأوُّه لا يتوقف يصدر من الشقة المقابلة لها.. خبطت على الباب حتى احمرَّت يداها ومع الخبطات يزداد صراخ المتألم وكأنه يطلب محاولة أكثر عملية. اتصلت بعامل الأمن ليأتي ويكسر الباب وسط صراخ والدتها بكلمة "مالناش دعوة.. لا يكون فيه مصيبة.. إحنا ما لنا".. فصرخت عالية في وجهها بغضب: "ماما! ممكن تسكتي دلوقتي؟!!"

في قصتها مع يوسف كان لأمها دور سلطوي غير مباشر في إنهاء العلاقة. لقد ألحَّت عليها أن تذهب وتضع حداً لقصة أصبحت سخيفة وغير مفهومة ولا تعجبها. أشعلت كل ما كان ساكناً من غضب داخلها؛ بسبب الخوف عليها وصيانة قيمتها كفتاة لا تقل عن أي فتاة أخرى فيما تستحقه.. أمها امرأة حازمة تتمسك بالأصول تحت أي ظرف، لا تعرف للحب قوالب ولا مسميات إلا في إطار الزواج والمفروض والمطلوب كما حدده المجتمع وكما اتَّفقت عليه الأعراف. لم يكن يعجبها يوسف أبداً، حتى إنها كانت أحياناً ترصد لها عيوبه

في اليوم الواحد مرتين. وانتهت العلاقة برفض يوسف القاطع لأخذ الخطوة الرسمية كما توقعت.

وفي هذه الحالة هناك نوعان من الأمهات: الأم التي عندما يتم إثبات صحة وجهة نظرها وتوقعاتها، لا يعنيها ذلك وتهتم باحتواء الموقف وتقدر مشاعر الانكسار والإحباط، ولا تجد داعيا لأن تزيد منها.. والأم التي لا تهتم إلا بالتأكيد على مدى عمق حكمتها وصواب رؤيتها وبُعد نظرها، وأنها كانت تعلم ما لا يعلمه أحد، ثم تبدأ عمليات اللوم المكثفة: لأن رأيها لم يحتذَ به من البداية.

أمها كانت من النوع الثاني حتى رغم ما كنت عالية فيه من حزن بيّن لمن لا يعرفها قبل من عرفوها. وقد ترك ذلك في نفس عالية شرخاً في إحساسها بعلاقتهما.. شرخ لا يظهر إلا في بعض المواقف الحادة التي تفضح كل التحفظات المكتومة.

نقلته وحدها بسيارتها إلى المستشفى بعد أن رفضت أمها الخائفة أن تشاركها جنونها وتذهب معها.. بعد دخوله غرفة العمليات لاستئصال الزائدة، بدأت تفتِّش في تليفون هذا الجار الجديد..بعد تفقُّد عدد من الرسائل، عرفت من هو أخوه، وقد كان مسجّلاً له رقمين دوليين ورقمين لخطوط مصرية. اختارت عشوائياً أن تبدأ برقم مصري، رد مفزوعاً؛ فقد كانت الساعة حوالي الرابعة فجراً، ثم وصل المستشفى في أقل من نصف ساعة.

يومها الظروف لم تكن تسمح بأكثر من تعارف سريع.. تعارف تم عندما وافق النصيب أن يجعلها تمر من جانب باب الشقة وتسمع صراخ أخيه.. وأن يكون هو موجوداً في القاهرة في تلك الفترة.

تأتي الصدفة دون أي تحضير ولا ترتيبات بشرية مصطنعة، ليس لها أي قواعد زمنية أو مكانية لتحكمها. لديها قدرتها على دبِّ الروح في علاقة كانت ماتت من سنين، يسهل عليك الاستمتاع بها لو كنت تنتظرها، ويسهل عليك تجنبها لو كانت غير مرغوبة، فهي حرة تأتيك، وأنت حر ترفضها، ورفضك لا يغضبها فهي لا تتوقف عن أن تأتيك طوال حياتك، ورغم كل ما تعرفه عنها، إلا أنها تدهشك كل مرة تأتيك.

قابلته صدفة في أحد مطاعم المعادي وقال لها إنه أراد أن يشكرها، وإنه عرف من أخيه أنهما أصبحا صديقين، أكدت ذلك.. طلب رقم تليفونها، واتصل بها بعد أسبوع.

تقابلا بميعاد تلك المرة.

كانت وقتها صحفية في جريدة الأهرام الأسبوعية الإنجليزية.. قال لها بمنتهى الصراحة إنه يكره الصحفيين، ضحكت لصراحته.

الرجل الصريح أحياناً يكون أكثر إغراءً من آل باتشينو في فيلم "عطر امرأة".

حكى لها أن أباه تم اتهامه في قضية كسب غير مشروع، وقد قرأ في أخبار الجرائد التي تخصُّ القضية معلومات عنه وعنهم ليس لها أي علاقة بالحقيقة، وكان يتصل بالصحفيين بنفسه للتكذيب ويطلب الاعتذار ويهدد برفع القضايا، حتى أرهقته قلة أخلاقهم وبجاحتهم وأصابته باللامبالاة التي جعلته لا يهتم بأن يُكذّب حتى أن أباه لم يمت مشنوقاً في صالة بيته، ولا ألقى بنفسه من شباك غرفته كما ادَّعوا، فقد نام ولم يستيقظ.

سألته إن كان أبوه فعلاً كان يتكسَّب بطرق غير مشروعة، ردَّ دون تفكير: نعم.

الحبُّ هو صداقة مشتعلة بأحاسيس الرغبة المتبادلة، والصداقة لا تُبنى إلا على الصراحة.. وكذلك الحب.. ذلك لو اهتمَّ الطرفان أن تدوم علاقتهما صحية وحقيقية لأطول فترة ممكنة.

ثم استكمل أنه لذلك قرَّر أن يدخل مجالاً مختلفاً عنه تماماً حتى لا يخلطوا الأوراق ببعضها.. ولكنهم يخلطون.. وأضاف أن قيمة هذا الرجل كأب لم ولن تُخدش أبداً بالنسبة له، وأنه لم يحزن قدر ما حزن على فراقه. ابتسمت وقالت: أنا بقرا الناس كويس.. وسيبهم يقولوا اللي يقولوه!

ابتسم لها تلك الابتسامة التي تأتي بعدها حكايات.

شاركته أن أباها كان يحب عمله أكثر من نفسه، كان يكرر ذلك التساؤل الخبري الأبوي الكليشيهي "هو أنا بشتغل علشان مين؟"، وأجابت عليه في مرة بغيظ "علشان نفسك بس"، كان ذلك عندما كانوا في جنوب أفريقيا لعمله حينها هناك، ورفض أن يعود لحضور مراسم دفن أمه بسبب انشغاله.. وحكت أنها حزنت أنه لم يعطها الفرصة لكي تودِّع جدَّتها التي كانت تعشقها، وأنها تشبهها في الشكل والطباع، ولا تشبه أمها وأباها في شيء.

يسيطر على المرأة بقايا مشاعر تجعلها تقارن كل من يقترب منها بآخر رجل أحبته، وتُحسم النتيجة عادة للماضي، ولكنها ولأول مرة لم تقارنه أبداً بيوسف.

ثلاثة شهور من المكالمات اليومية والمقابلات وتبادل الآراء في كل شيء، ثم طلب يتزوجها. وافقت.

أحبَّته.

أحبَت أنه رجل مهذب في زمن تلاشى فيه هذا النوع من الرجال. أحبَّت إجابته عندما سألته لماذا لم يسألها أبداً عمن كانوا يوماً في حياتها، وكيف أجابها بصوت ثابت أن الماضي لا يعنيه. ولكنها لو أرادت أن تحكي فهو سيستمع بإنصات حقيقي. أحبَّت كيف أصبحت علاقته بأصدقائها قوية وكيف أحبوه بسرعة. فالأدب يختصر عليك كل الطرق لقلوب البشر.. أحبت كيف شجّعها أن تترك الصحافة وتتجه للإعلام المرئي. أحبَّت كيف تمتزج رائحة عطره مع دخان سجائره. أحبَّت كيف ينظر لها في عينيها حتى وهو يرتشف من قهوته أو يشعل سيجارته. أحبَّت أنه حين أراد أن يتزوَّجها كان واثقاً من اختياره، ولم يَعْنِهِ قصر مدة معرفته بها، وأنه طلب ذلك مباشرة دون تمهيدات ومماطلات لا داعي لها، وكيف أنها عندما قامت لتحتضنه بعد أن وافقت، فتح ذراعيه ببطء وحنان أب، وليس بسرعة وشهوة محب.

من يتكلَّم عن التروِّي في الحب أو عن الأسس السليمة للحب أو عما يصح أو لا يصح في الحب، لا يعرف عن الحب شيئاً. الحب ليس له "كتالوج" ولا وصفة سحرية ولا خطة ناجحة.. قد يزلزل كيانك في أسابيع وتعترف به ويستمر، وقد تحبس مشاعرك فترة من باب الحكمة حتى يستمر عند الاعتراف به. ولكن لا يستمر.. لا قاعدة ثابتة في الحب ولا ضمانات. وهذا أحلى ما فيه وأصعب ما فيه.. هذا ما يعيبه وما يميزه.. هذا ما يمتعنا به، وهذا ما يخيفنا منه.

وفَّر لها فرصة اختبار مذيعات لإحدى القنوات الفضائية.. رفضت لأنه توسَّط لها. أقسم لها إنهم سيعاملونها مثل أي شخص آخر، وإنه يحاول فقط أن يساعدها في مرحلة ما قبل الخطوة الأولى. وافقت. نجحت في الاختبارات وظهرت لأول مرة كمذيعة في برنامج أغاني أسبوعي خفيف في

قناة كبيرة، ثم عملت كمراسلة لقناة إخبارية، ثم كمذيعة في برنامج شبابي يومي تظهر ضمن ثلاثة مذيعين. توقفت سنة لظروف الحمل والولادة، ثم عادت ببرنامج خاص تقدّمه هي ومذيع مدته نصف ساعة. وأخيراً أصبح لها برنامج خاص بها وحدها مدته ساعتان على نفس القناة الكبيرة التي بدأت بها، اختارت وحدها شكله وهويته وطاقم الإعداد.

يتنافس النجاح مع الحب من حيث ما يجلبه لقلوبنا من انبساط وبهجة. فهل هناك شيء يفوق روعة أن تكون ناجحاً ومعك من تحب؟ وأن يكون من تحب على استعداد تام لتقبُّل نجاحك ومشاركتك إياه ودفعك لنجاح أكبر؟ إنها السعادة المكتملة على الأرض.

قالت وهي تضع يديها الاثنتين في وسطها ووجهها تسيطر عليه عصبية أخفى ملامحها الهادئة: "أنا هاتصل بالدجوي حالاً.. الأمور دي ما تنفعنيش.. أنا لو كنت لسّه في الصحافة.. كان زماني خلصت الموضوع ده كله على بعضه في أسبوع".

كانت تريد أن يكون موضوع حلقتها القادمة عن "المثليين في مصر"؛ فهم موجودون، ولكن لا يمكنك أن تحصر عددهم، ولا أن ترصد حجم تزايدهم في الفترة الحالية عن فترة مضت؛ لأنهم لا يُعلنون عن أنفسهم أبداً خوفاً من العنف والاحتقار والسجن الاجتماعي الذي سيتم حبسهم فيه دون تضامن من أحد.. خوفاً من سحب حقهم "الإنساني" في نظرة عادلة لا تشوبها إهانة، ودون التفكير في كيفية ممارستهم لنشاطاتهم الجنسية.

نجح الفريق في الوصول لأكثر من شاب ممن أعلنوا عن اتجاههم في دوائرهم الاجتماعية القريبة، واتصلوا بهم، ولكنهم أخفقوا في إقناع أي منهم بالظهور تلفزيونياً، والحديث عن مشاكله مع مجتمع إقصائي. رفضهم كان قاطعاً.

وقد شرح لها الفريق أن ما تريده شبه مستحيل، ولكنها ظلّت على رأيها أنهم مقصرون وبتلاكعون، وأنهم غير متحمسين للفكرة منذ أن طرحتها..

كان كريم الدجوي رئيس تحرير برنامجها، ولكنه ترك العمل لفرصة في مكان أفضل مع وعد منه بالمتابعة بشكل ودّي.. اتصلت به:

- أنا آسف يا برنسيسة... أنا عارف إني مقصّر.. بس صدّقيني صدّقيني الدنيا عندي مش أحسن حاجة خالص..

- العيال دي هتشلني.. يا لهوي على البرود.. كل حاجة مش عارفين.. مش فاكرين.. طب هنعمل إيه؟ فين أيامك؟! فين؟ كنت بتحايل عليك تروّح تنام في بيتكم

- بصي بصراحة.. همّا حكوا لي اللي أنتي عايزاه.. صعب أوي يا عالية.. أوي يعني.. ممكن تجيبها من حتة تانية.. وبعدين اشمعنى عايزة تفركي في الحتة اللي ماحدش لي فيها دي؟

- علشان محدش لي فيها يا دجوي.. وعلشان زهقت من الكلام عن حاجات مش محتاجة كلام، والتغاضي عن الحاجات اللي محتاجة كلام..

- طيب.. ممكن نحاول.. نتصرف..

- أنا معنديش مشكلة أنزل لواحد فيهم أقنعه بنفسي..

- تمام.. ما تقفشيش على العيال بس.. طالعان عينهم والله.. وأنا هافوت عليكي بكرة الصبح في المكتب..

- لما نشوف..

- وعلى فكرة.. ممكن مبدئياً أدّي الشباب كونتاكت لبنت اسمها فرح الطيبي.. كتبت رواية في شهر عن قصتها مع فاضل زكي قبل ما يموت بشهور.. هاتها إنترفيو..

- آه آه.. سمعت عنها و هعرف أوصل لها...بنت عم واحد كنت أعرفه

- تمام جدًا...

دخلت غرفة الاجتماع مرة أخرى بعد ما انتهت من المكالمة وقالت:

- طيب يا جماعة.. نتقابل بكرة نكمل..

كان عليها أن تأتي بابنتها من المدرسة؛ حتى تذهب بها لدكتور الأسنان فقد أصابها التهاب حاد في اللثة يجعلها لا تقدر على المضغ تقريباً.

في طريقهما معاً للدكتور اعترفت لها خديجة بأنها جربت أن تذوق ورقة شجرة، وسال في فمها سائل أبيض وصفته بـ"حاجة زي الكوريكتور"، ومن يومها وهي تعاني هذا الالتهاب!

قالت لها: بتاكلي الشجر يا ديجا؟ فيه حد ياكل شجر؟ ردَّت بسرعة: "سوري!"

رنَّ تليفونها، تفقَّدت الشاشة وابتسمت وردَّت بسرعة:

"يااااه.. أنتي لسّه فاكراني؟ ده أنا والله...."

لم تكمل جملتها وأنصتت بتركيز، وتحوَّلت الابتسامة تدريجياً إلى تجهُّم حاد.

يوسف الطيبي مات فجر اليوم في حمام شقته إثر تناوله جرعة هيروين زائدة.

يوسف الطيبي

أمام مرآة قذرة ومعوجّة وبها شرخ هائل في المنتصف، تماماً كنفسه،
وقف عارياً متجردًا من كل شيء يتفقّد جسده الممصوص وكأنما
سُحِب منه الدم والدهون والعضلات ولم يتبقَّ سوى عظام هشّة قابلة
للكسر بلمسة يد طفل.

- الخط.. التليفون.. خط التليفون اتقطع عليَّ

- أتشرف باسم حضرتك الأول يا افندم؟

- هو اسم حضرتي مش بيبقى باين قدامك؟

- أنا آسفة.. لازم أتأكد.

- يوسف الطيبي.

- لحظات يا افندم "أتشِك" إيه المشكلة، وأرجع لحضرتك.

- يا ريت ما تشغلوليش مزيكا ساعة!

- دقايق بالظبط..

بعد أقلّ من دقيقة..

- أنا قُدامي إن حضرتك ما دفعتش الفاتورة، وطلبت مهلة أسبوع، والأسبوع خلص من أول.....

قاطعها وهو يضحك باستهزاء:

- فكريني باسمك تاني معلش..

- كنز..

- أيام يا كنز ما كنتي إنتي لسه في المدرسة، كنت أنا عميل متميّز.. من اللي بيتبعت لهم هدايا يوم عيد ميلادهم على البيت..

استكمل قبل أن تردَّ:

- أنا لازم أعمل مكالمة حالاً.

- أنا آسفة يا افندم..

- ضروري.

- مفيش في إيدي حاجة أقدر أعملها..

- مكنة.. إنتي مجرد مكنة.. إنتي لو ما كنتيش غبية ما كنتيش اشتغلتي شغلانة البغباغانات دي.

- شكراً لاتصال حضرتك ونتمنى..

أنهى المكالمة قبل أن تُكمل جملتها المحفوظة لإنهاء أي اتصال مع أي عميل.

أمام مرآة قذرة ومعوجَّة وبها شرخ هائل في المنتصف، تماماً كنفسه، وقف عارياً متجردًا من كل شيء يتفقَّد جسده الممصوص، وكأنما سُحِب منه الدم والدهون والعضلات، ولم يتبقَّ سوى عظام هشة قابلة للكسر بلمسة يد طفل. تلك المرآة أصبحت ضمن آخر ما تبقَّى في شقة ملأها يوماً أثاث صُمِّم خصيصًا كما رسمه واختاره هو.. لم يتبقَّ سواها هي ومَرتَبَة رديئة مهلهلة ملقاة في إحدى جوانب الغرفة دون عناية، ومطبخ انتشرت داخله حشرات

تزحف وتتكاثر بحرية، وخلا من كل أدواته باستثناء أشياء قليلة من ضمنها "الملاعق كبيرة الحجم" فهي ضرورية "للتسخين"..

بجانب باب الشقة، ترابيزة خشبية صغيرة غطّاها تراب تحدّى في كثافته عدد العناكب التي احتلّت أركان الأسقف كلها، ومائلة باعوجاج فهي تقف على ثلاث أرجل فقط؛ لأن الرابعة ضاعت نتيجة ركلة قدم في لحظة غضب. عليها تليفون محمول قديم، وميدالية تلاشت لمعة فضتها وبها مفتاح وحيد مثل صاحبه، ومحفظة كانت يوماً فاخرة قبل أن يتآكل جلدها، داخلها كارت بنك أصبح لا يُستخدم في أي تعاملات بنكية بعد أن نفدت كل الأرصدة.. يُستخدم لتسطير تلك الحبيبات البيضاء القاتلة.

قبل ثماني سنوات، لم يكن أحد يتوقّع أن تصل حياة يوسف لهذا المستوى المتدني.. هي حتى ليست حياة. أهذا الذي لم يكن أحد يوماً قادراً على هزيمته.. أو كسره؟

الحب، يهزم ويكسر أحياناً.. أما الهيروين، فيقتل.

اختارت أمه أن تنهي تعليمها بمجرد أن حصلت على شهادة الثانوية العامة رغم أنها من عائلة عريقة ليس من المعتاد فيها ذلك، وكانت بطبيعتها محدودة الذكاء وضيقة الفكر والوعي وغير مهتمّة إلا بجمالها و"صحّة" أولادها.

لم يحاول أبوه أبداً أن يخلق معه حواراً يذهب إلى ما هو أعمق من أخباره وأحواله السطحية، ولكنه لم يبخل يوماً عليه بأي شيء، ولم يتأخّر عنه في تحقيق أي رغبة أياً كانت تكلفتها مادياً.

تصغره أخته بست سنوات، علاقته بها علاقة تقليدية عادية قد يتخللها بعض الدفء الأخوي في أعياد الميلاد والتجمُّعات العائلية فقط. بمجرد أن

أصبح مراهقاً، أدرك اختلاف ميوله وفكره عنهم، فأصبحت علاقته بهم ضعيفة؛ ليست سيئة ولا مرتبكة ولكنها ضعيفة.. كان يشعر أنه غريب عنهم.

الغربة من أقسى المشاعر التي قد يمر بها الإنسان، وتتضاعف قسوتها عندما توجد في مكان لا يجب أبداً أن توجد فيه: في بيتك وسط أهلك.

ذكي. يتحرَّك ويفكِّر ويحسب بسرعة . لا تعطى له مهمة إلا وينجح في إنجازها. مختلف. مثقف. متفتح. رياضي. وسيم. لا يقول شيئاً مضحكاً دون أن يضحك الكل. واثق بنفسه. موهوب. ناجح. انفعالاته متناسبة مع الموقف. ولكنه ليس صادقاً ولا وفيّاً ولا يحفظ وعداً.

ميزاته غطَّت بقوة على عيوبه حتى ولو كانت واضحة، وكانت مؤهلات جعلته محبوباً ومرغوباً اجتماعياً، ولا يدخل مكاناً إلا ويخرج منه بأسماء جديدة تضاف إلى قائمة ممتلئة بالمعارف والأصدقاء الذين لا يعنيه منهم فعلياً سوى القليلين. وكلما زاد نجاحه، زادت الناس من حوله.

الناس تكره الفاشلين وتبتعد عنهم قدر المستطاع، وتجد مغناطيساً في الناجح. الناجح مفيد سواء بمنفعة مباشرة أو بمجرد اكتسابه.

التحق يوسف بجامعة خاصة كما أصرَّ أبوه الذي كان يرى في ذلك إتماماً لواجبه في أن يوفِّر له أفضل سبل التعليم. واختار هو أن يدرس الإعلام.

في السنة الدراسية الثانية، قابلها: عالية خضر.

كانت عالية صديقاً أكثر من كونها حبيبة. كانت أحياناً تغنيه عن صداقة الرجال. قوية. جريئة؛ تلك الجرأة التي تقف في حياد وسط الخجل والبجاحة.

كانت تعانده كثيراً. فهي لا تحب إلا ما تحب ولا تكره إلا ما تكره أياً كانت رغبته هو. وكان هذا الاستقلال الفكري يعجبه حتى لو كان أحياناً يتعبه. لا تتكلم إلا لو في كلامها إضافة. لا تسكت إلا لو في سكوتها فائدة. لا تقتنع إلا بما يتماشى مع منطقها الخاص. كان لها وجهة نظر في كل شيء.

وكانت تحبُّ أن تتصوَّر فوتوغرافياً أو تتكلَّم أمام كاميرا فيديو. ولكنها تخجل أن تقف أمام أي كاميرا أخرى غير كاميرته:

- أنا واثق إنك هتبقي مذيعة شاطرة.

- أنتَ ليه دايماً بتقول لي كده.. أنا استحالة أقف قدام كاميرا وأقعد أتكلم وهي تصوَّر.. لأ لأ استحالة!

- يعني إنتي يعني تطلَّعي عيني أنا رغي وتنظير.. لكن ساعة الكاميرا تعملي فيها منكسرة ومُحرجة؟

ضحكت وسبقته بخطوة.

الآن، هي تسبقه في حياتها بمليون خطوة.

شاهدها في أول حلقة لبرنامجها بعد أن أغرقت الشوارع والكباري ألواح الإعلانات الضخمة المضيئة. فعرف أنه لن يقابلها بعد صدفة عبر الشاشة كمراسلة غير دائمة في إحدى القنوات، وأن سيصبح للقائهما ميعاد ثابت.. ولكنه لم يواظب عليه حين اضطرَّ أن يبيع تلفزيونه ضمن كل ما باعه.

من عيوب الوقوع في حب مشهور، هو أنه لا يمكن تفادي رؤيته أو سماع سيرته.

لن يصدِّقه أحد لو قال إنه يفتقد صوت ضحكةٍ عالية؛ فضحكتها في التلفزيون كان ينقصها شيء، وشعرها الطويل عندما تلمُّه في ذيل حصان

يتراقص يميناً ويساراً مع خطواتها، فقد قصَّته. لن يصدِّقه أحد؛ لأنه يكذب، فهو يفتقد كل ما فيها.. حتى نطق اسمها.

أمام المرآة ما زال يقف. جرَّب أن ينطق اسمها فقال بصوت متهالك: عالية.

بعد أن تخرَّج، عمل في شركة إعلانات معروفة. أخذ منعطفاً فكرياً غريباً عنه. انتقل ليعيش في بيت اشتراه أبوه له ليتزوج فيه، ولكنه جهزه وانتقل ليعيش هناك وحده. أصبح كارهاً لكل الأفكار الاجتماعية التي كان مقتنعاً بالبعض منها.

اكتسب عادات مزاجية مختلفة. فبعد أن كان يشرب الخمر في المناسبات فقط كنوع من المجاملة، أصبح بيته لا يخلو منه، وبعد أن كان يدخِّن الحشيش كل سنة مرة إذا وُجِد، أصبح جيبه لا يخلو منه، وإذا خلا منه، أصبحت مشكلة تعوقه عن التفكير في أي شيء آخر.

في إحدى زياراتها له.. سألت بضيق خلق لم ينتبه حتى له:

- بتدوَّر على إيه؟

- بدوَّر على حاجة كانت معايا ومش لاقيها.. متعصب جداً! كانت في جيبي حالاً!

فتح علبة سجائره وفتَّش فيها، وطلب منها أن تتحرَّك من مكانها، وبحث تحت كل الكراسي وفوقها، ودخل كل الغرف ثم خرج ليكرر البحث في نفس الأماكن.

قالت كأنها فهمت ما ضاع منه:

- خلاص يا يوسف مش قضية أوي كده!

فقال بعصبية:

- يا ستي قضية بالنسبة لي أنا.. متغاظ! مش مصدَّق!

واستمرَّ في البحث وهو غير مهتم بالنظر إلى وجهها الذي بان عليه الغضب.

عندما تفتح أمامك أبواب حياة غير الحياة التي طالما عرفتها وتُخلق فرص تعارف مستمرة، يصبح الالتزام تجاه شخص واحد قدرة. قدرة لم تكن موجودة عند يوسف.. شعر بأن حبه لعالية يقلُّ وأن وفاءه لها أصبح عبئاً.

- أنا رافض الفكرة نفسها.. فكرة الجواز مش عايزها ومش في خططي.. أو في خططي بس مش النهارده.. ومش بكرة.. يمكن قدام.

نظرت له في عينيه نظرة تساؤل.. ففهم معنى النظرة.

- آه أنا ماكنتش كده.. بس عادي الناس بتتغيَّر.. مش لازم أبقى اتولدت كده.. فكرت.. واتغيرت.

- اتغيرت فعلاً..

تفقَّدته بعين واسعة ووجه مندهش.. تفقَّدت كل جزء فيه، ثم ثبتت عينها في عينيه، وطالت النظرة، ولما أدار وجهه في عناد، رحلت دون أن تنطق بكلمة.

مرَّت ستة أشهر، حاول فيهم أن يتصل بها مرة واحدة ولم تردَّ عليه، وتكاسل حتى في أن يعيد المحاولة مرة أخرى. سافرت كندا تحضِّر للماجستير.

في العلاقات، يشعر أحياناً طرف باختناق الالتزام الذي يدفعه إلى أن ينهي العلاقة دون التفكير في أي احتمال للحنين، وإما أن يستريح فعلاً، وإما أن يشعر بالندم؛ لأن اختناقه كان مفتعلاً ليس له أسباب منطقية وحقيقية.

ندم يوسف سريعاً ولكنها لم تعطه أي فرصة لأي محاولة. بعدما عادت من الخارج. كانت لا ترد عليه أبداً. لا تحضر مناسبات قد تراه فيها. تحاول أن تتجنَّب أصدقاءهم المشتركين. ثم تزوَّجت في شهور قليلة، من رجل أعمال مصري لبناني.

صُدم.

كان داخله نوع من تلك الثقة البلهاء أن عالية رغم واقعيتها وقوتها وتشبُّثها بكرامتها، ستظل تحبه، وأن الفراق بينهما لن يدوم للأبد.

انهار.

في حفل في منزل صديق بمناسبة رأس السنة، حضره مضطراً ومكتئباً:

- إيه يا چو؟ ده هي مرة!

- لا يا معلم.. انسى.. لو قدامي جبل هيروين حتى.. مش سكتي خالص

- ده new kind of highs وأنتَ بقالك فترة قاعد لنا زي البومة.. لا بتفرفش عدل ولا بتشتغل عدل..

ثم مرت إحدى الفتيات فنظر لها صديقه، ثم قال مبتسماً:

- ولا بتظبَّط عدل..

ولم تكن مرة واحدة.. ولم تكن آخر مرة.

لا أحد يعرف حتى كيف خانه ذكاؤه وتخطَّى حاجز الانبساط بمراحل أوصلته لمرحلة الاحتياج الفيزيائي المَرَضي..

ومتى أصبح لا يهتم بما حدث في الماضي، ولا يعنيه ما قد يحدث في المستقبل..

وكيف أصبح بهذا الشكل المثير للتقزُّز..

الهيروين امتصَّ روحه وجعل منه عبداً مُطيعاً وغبياً. حياته أصبحت لا تدور إلا حول هدف واحد: توفير الجرعة اليومية اللازمة له من مصدر دوري لن يخلوَ به.

لم يعد يزوره من أهله وأصدقائه سوى أخته كل فترة طويلة. لا لشيء إلا لتتأكد أنه لم يبع الشقة.

بأسلوب آلي يخلو من العواطف، قالت له في إحدى الزيارات التي لم تكن تستمر أكثر من دقائق تمرُّ كدهر كامل، ولا يقال فيها أكثر من جمل قصيرة مكرَّرة:

- اسمع يا يوسف.. أنا معنديش مشكلة أنزل العيادة وأشتغل تاني وأجيب فلوس مصحة، أو أقنع بابا يدخَّلك تاني.. معنديش مشكلة أعمل أي حاجة.. أي حاجة بس أنتَ تساعدنا وتقتنع.

ردَّ بعضلة لسان أبطأت حركتها المخدرات:

- بس كان عندك مشكلة تعزميني في فرحك؟

ظلَّ واقفاً أمام المرآة، ثم حقن نفسه. يفعل ذلك أحياناً ليدرك بشاعة منظره وما وصل إليه.

دخل في نوبة بكاء.

مشى ببطء وكأن قدمه مكبَّلة بسلاسل حديدية. دخل الحمام. أغلق وراءه الباب وعلا صوت تكَّات القفل وكأنه يعلن عن خطر.

ساد الصمت في بهو الشقة لمدة دقائق، ثم رجَّها صوت ارتطام جسد على الأرض.

وقعت المرآة.

أذَّن الفجر.

إهداء لا بد منه

إلـــى:

هدى رؤوف

محمد عبد الجابر

محمد محمد عبد الجابر

كريم الدجوي

سلمي كبيش

ياسر شاهين

منة الله فؤاد

مي الغايش

ياسمين زهدي

نورا الجزار

فهرس المحتويات

رغبة في النسيان

أمام مرآة قذرة ومعوجَّة وبها شرخ هائل في المنتصف، تماماً كنفسه، وقف عارياً متجردًا من كل شيء يتفقَّد جسده الممصوص، وكأنما سُحِب منه الدم والدهون والعضلات، ولم يتبقَّ سوى عظام هشة قابلة للكسر بلمسة يد طفل. تلك المرآة أصبحت ضمن آخر ما تبقَّى في شقته..





